التبيان في شرح كتاب الإيمان من اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان

للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي

شرحه

خالد بن سعود بن بليهد الخالدي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. وبعد فهذا شرح مختصر محرر على كتاب الإيمان من اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان اعتنيت بإيضاح المعنى العام لمسائل التوحيد وشعب الإيمان والتنبيه على جملة من المآخذ والقيود المتعلقة بهذا الباب على منهج أهل السنة والجماعة وأعني بهم أئمة السلف الصالح المتبعين للأثر وذكرت المخالفين لأهل السنة في هذه المسائل مع بيان انحرافهم عن السنة ليتبين الحق ويزول الاشتباه مع ذكر شيء من التوجيه والإرشاد والنصيحة للعباد في المواعظ والفضائل والآداب.

والباعث على هذا قلة الشروح المنضبطة والحاجة إلى إيضاح المعاني الشرعية لأصول الدين لا سيما ما يتعلق بباب الاعتقاد الذي أخطا فيه ووهم كثير من شراح الحديث الذين ساروا على منهج المتكلمين ما بين مقل ومستكثر وكثرت فيه المخالفات في واقع المسلمين. فأسأل الله التوفيق والإعانة فيما أردت وأن يجعل هذا الكتاب نافعا للعامة والخاصة والله خير مسئول ونعم النصير.

كتبه في الرياض:
خالد بن سعود البليهد
binbulihed@gmail.com
١٤٣١/٧/٢٥

(١)تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم

١-حديث عليّ قال: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: (لا تكذِبوا عليّ، فإنه من كَذَبَ عليّ فَلْيَلِجِ النارَ) متفق عليه.
٢-حديث أَنَسٍ قال: إِنه لَيَمْنَعُنِي أَنْ أحدّثكم حديثًا كثيرًا أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ تعمَّدَ عليّ كَذِبًا فَلْيَتبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النار) متفق عليه.
٣-حديث أبي هُرَيْرَةَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: (مَن كَذَب عليّ مُتعمِّدًا فليتبوَّأْ مَقْعَدَهُ من النار) متفق عليه.
٤-حديث الْمُغِيرَةِ قال سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: (إِنَّ كذِبًا عليّ ليس ككذِبٍ على أحدٍ، مَن كَذَبَ عليَّ مُتعمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ منَ النار) متفق عليه.

الشرح:

في هذه الأحاديث بيان تحريم الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ذلك من كبائر الذنوب وقد اتفق أهل العلم على ذلك وقال أحمد بن حنبل فيمن تعمد الكذب: (يفسق وترد شهادته وروايته ولو تاب وحسنت حالته تغليظاً عليه وغالب الكذابين على النبي صلى الله عليه وسلم زنادقة). وفيها أن فعل ذلك سبب من أسباب دخول النار. وفيها أن الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس في منزلة الكذب على غيره من المخلوقين بل أعظم جرما وأشد خطرا لأن الكاذب على الرسول صلى الله عليه وسلم ينسب إلى الشريعة ما ليس منها ويحدث في دين الله ويلزم العباد بخبر أو عمل ذمتهم بريئة منه. وفيها أن الكذب يحرم مطلقا ولو كان الغرض منه الوعظ وإفادة الناس فمن تعمد الكذب والوضع في الأحاديث أو تساهل في رواية الأحاديث المكذوبة داخل في هذا الوعيد أما من أخطأ في نسبة الحديث أو كان يرى صحة الحديث اجتهادا منه فلا يأثم في ذلك ولو كان حكمه خاطئ. وقد تساهل القصاص والوعاظ في كثير من الأزمان في وضع الأحاديث المنكرة وروايتها في باب فضائل الأعمال وأبواب الدين

لبواعث كثيرة ويوجد في زماننا من القصاص من يجوز الكذب لمصلحة الدعوة وهذا مسلك قديم لبعض القصاص فقد وضع ميسرة بن عبد ربه حديثاً في فضائل سور القرآن ولما سُئل عن ذلك قال: (رأيت الناس انصرفوا عن القرآن فوضعتها أرغّب الناس فيها). وقد روج أهل البدع كالرافضة والصوفية وغيرهم أحاديث موضوعة على النبي صلى الله عليه وسلم لتأييد بدعتهم وقد تصدى لهم علماء أهل السنة في زمن مبكر ووضع المتأخرون مصنفات وبينوا أن هذه الأحاديث مكذوبة ليس لها أصل في السنة وقيل لعبد الله ابن المبارك هذه الأحاديث المصنوعه قال: (يعيش لها الجهابذه). وقد سُئل مالك بن أنس عن الرافضة فقال: (لا تكلّمهم ولا ترو عنهم فإنهم يكذبون). وقد تسامح العلماء الكبار في رواية الأحاديث التي ضعفها مقارب ومعانيها صحيحة في باب الفضائل ما لم تخالف أصلا محفوظا من كتاب أو سنة صحيحة أو إجماع وهذا هو منهج المحققين من أهل العلم خلافا لمن شدد وتعنت في هذا الباب قال أحمد بن حنبل: (إذا روينا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحلال والحرام شدَّدنا في الأسانيد وإذا روينا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في فضائل الأعمال وما لا يضع حكمًا ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيد). وقال ابن تيمية: (وإنما مرادهم بذلك أن يكون العمل مما قد ثبت أنه مما يحبه الله أو مما يكرهه الله بنص أو إجماع كتلاوة القرآن والتسبيح والدعاء والصدقة والعتق والإحسان إلى الناس وكراهة الكذب والخيانة ونحو ذلك فإذا روي حديث في فضل بعض الأعمال المستحبة وثوابها وكراهة بعض الأعمال وعقابها فمقادير الثواب والعقاب وأنواعه إذا روي فيها حديث لا نعلم أنه موضوع جازت روايته والعمل به). وفيه ورع الصحابة رضي الله عنهم عن الإكثار من الرواية خشية الوقوع في الخطأ في حديث النبي صلى الله عليه وسلم وهذا المنهج يقوم على التثبت والاحتياط وكثير من المتأخرين تساهلوا في الحديث عن مسائل الدين فيتكلم الرجل في كل شيئ بلا زمام ولا خطام.

(٢) الإيمان ما هو وبيان خصاله

١-حديث أبي هُرَيْرَةَ قال (كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم بارزًا يومًا للناسِ فأتاه رجلٌ فقال: ما الإيمان قال: الإيمان أن تؤمنَ بالله وملائكتِهِ وبلقائِهِ وبرسلِهِ وتؤمَن بالبعثِ قال: ما الإسلامُ قال: الإسلامُ أن تعبدَ اللهَ ولا تشركَ به وتقيمَ الصلاةَ وتؤدِّيَ الزكاةَ المفروضةَ وتصومَ رمضانَ قال: ما الإحسان قال: أن تعبدَ الله كأنك تراهُ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال: متى الساعةُ قال: ما المسئولُ عنها بأَعْلَم مِنَ السائل، وسأُخبرُكَ عن أشراطِها؛ إذا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذا تطاولَ رُعاةُ الإبِلِ البَهْمُ في البنيان، في خمسٍ لا يعلمهنَّ إِلاَّ الله ثم تلا النبيُّ صلى الله عليه وسلم (إِنَّ الله عنده علم الساعة) الآية: ثم أدبر فقال: رُدُّوه فلم يَرَوْا شيئاً فقال: هذا جبريل جاءَ يُعَلِّمُ الناسَ دينَهم) متفق عليه.

الشرح:

في هذا الحديث دليل على أن هذا الدين ثلاث مراتب الإسلام والإيمان والإحسان. وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة بعبادة الله وعدم الإشراك به وهو مقتضى الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وفسر الإيمان بالأعمال الباطنة وقد دلت النصوص بمجموعها أنها ستة أصول يلزم العبد الإيمان بها ولا يتم إيمانه إلا بها الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره قال تعالى: (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ). وقال تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ). وقد أجمع أهل السنة على ذلك فمن أنكر شيئا منها أو شك فيه فقد كفر. والإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا في المعنى فدل الإسلام على الأعمال الظاهرة والإيمان على الأعمال الباطنة كما في هذا الحديث وإذا افترقا اجتمعا فدخل أحدهما في معنى الآخر فإذا أطلق الإسلام

دخل فيه العمل ظاهرا وباطنا وإذا أطلق الإيمان دخل فيه العمل ظاهرا وباطنا وكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمن. والإيمان عند أهل السنة والجماعة له ثلاثة أركان لا يصح من العبد إلا بتوفرها جميعا قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح وهو الحق الذي دلت عليه الأدلة الشرعية والآثار السلفية قال الشافعي: (وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممن أدركنا أنَّ الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة عن الآخر). وضل في هذا الباب الجهمية والأشاعرة والماتُريدية والكرامية والمرجئة والخوارج فمنهم من قصر الإيمان على المعرفة ومنهم من قصره على تصديق القلب ومنهم من قصره على قول اللسان ومنهم من قصره على تصديق القلب وقول اللسان وكل ذلك باطل مخالف للنصوص ومذهب أئمة السنة. وفيه أن مرتبة الإحسان له مقامان:

الأول: مقام المشاهدة وهو أن يستحضر العبد حال عبادته أنه يرى الله ويشاهده ويناجيه.

الثاني: مقام المراقبة وهو أن يستحضر العبد حال عبادته أن الله يطلع عليه ويراقبه قال ابن رجب الحنبلي: (يتولد عن هذين المقامين الأنس بالله والخلوة لمناجاته وذكره واستثقال ما يشغل عنه من مخالطة الناس والاشتغال بهم). والوصول إلى مرتبة الإحسان يحتاج إلى مجاهدة وتدرج وخلوة وحمية من فضول الدنيا وتفكر وتدبر في معاني أسماء الله وصفاته قال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ). قال الحسن: (أفضل الجهاد مخالفة الهوى). وفي مسند أحمد: (المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب). وفيه أن وقت حدوث الساعة من الغيب الذي أخفاه الله عن عباده حتى رسوله لكن أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقرب وقوعها فلا ينبغي للمؤمن ولا يشرع له أن يتكلف معرفة وقتها وكل من ادعى معرفتها فهو كاذب وقد كثرت الدعاوى والتخرصات في الأزمان المتأخرة. وفيه أن الساعة لها علامات وأمارات تدل عليها صغرى وكبرى وكثير من العلامات الصغرى وقعت أما الكبرى فهي العلامات السبع التي تقع قبيل الساعة بزمن يسير وهي متصلة كالعقد إذا وقعت واحدة تبعتها الأخرى وقد أخبر النبي صلى الله عليه

وسلم في هذا الحديث بعلامتين من الصغرى:

الأولى: أن تلد الأمة ربتها والمراد أن يكثر جلب الرقيق حتى تجلب البنت فتعتق ثم تجلب أمها فتشتريها البنت وتستخدمها وهي جاهلة أنها أمها وقد وقع هذا في أول الإسلام وهو كناية عن انتشار الإسلام وكثرة الفتوح.

الثانية: إذا تطاول رعاة الإبل والمراد أن أسافل الناس يصيرون رؤسائهم وتكثر أموالهم حتى يتباهون في إطالة البنيان وزخرفته وهو كناية عن انقلاب الموازين وفساد نظام الدين والدنيا وقد وقع هذا قبل قرون. وفيه أن أصول الغيب ومفاتيحه خمسة استأثر الله بعلمها ولم يطلع عليها أحدا لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا قال تعالى (إِنّ اللّهَ عِندَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنّ اللّهَ عَلَيمٌ خَبِيرٌ). وقد وردت السنة الصحيحة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب فلا يعلم أحد متى وقت الساعة ولا متى وقت نزول الغيث ولا ما يخلق في الرحم من ذكر وأنثى وأحمر وأبيض وأسود ولا ماذا يكسب الإنسان في مستقبله من خير وشر وغنى وفقر ولا أين يموت الإنسان وأين مضجعه من الأرض فمن ادعى أنه يعلم شيئا من ذلك أو أن رسولا أو وليا يعلم ذلك فهو كاذب ومكذب للقرآن منازع لله في شيء من خصائصه. وفيه أن الله جعل للملك جبريل عليه السلام قدرة على التمثل بالإنسان وهذا يدل على عظم خلق الملائكة وعجيب صفاتهم وكذلك الجن لهم قدرة على التمثل أما الإنسان فلا يتمثل بصورة غير التي خلق عليها.

(٣) بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام

١-حديث طَلْحَةَ بن عُبَيْد الله قال: (جاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم من أهل نجْدٍ ثائرُ الرأسِ يُسْمَعُ دوِيُّ صوتِهِ ولا يُفْقَهُ ما يقول ، حتى دنا فإذا هو يسأَل عن الإسلام؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خمسُ صلواتٍ في اليومِ والليلةِ فقال:

هل عليّ غيرُها قال: لا إلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وصيامُ رمضانَ قال: هل عليّ غيره قال: لا إلاَّ أَن تطَوَّعَ قال، وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاةَ قال هل عليَّ غيرُها قال لا إلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ قال فأَدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أَنْقصُ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ) متفق عليه.

الشرح:

فيه أن الإسلام هو الالتزام بشرائعه الظاهرة والانقياد لله بالطاعة بعد الشهادتين وقد اختلفت أجوبة النبي صلى الله عليه وسلم وتنوعت في تفسير الإسلام والإيمان على حسب اختلاف أحوال السائلين ونزول الفرائض ولذلك لم يذكر للرجل الحج في هذا الحديث. وفيه أن العبادات نوعان فرائض يجب على العبد الإتيان بها ويأثم بتركها ونوافل يستحب للعبد الإتيان بها ولا يأثم بتركها وإن شرع العبد بها لا يلزمه أيضا إتمامها وإنما يستحب له ذلك إلا الحج والعمرة من شرع فيهما وجب عليه الإتمام حتى يتحلل منهما لقوله تعالى: (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ). وفيه أن الواجب في باب الصلاة الصلوات الخمس في اليوم والليلة كما قال تعالى: (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا). وما زاد على ذلك فسنن ونوافل لا يجب منها شيء على الصحيح من قولي العلماء سواء كانت مطلقة أو مقيدة راتبة أو عارضة كصلاة الوتر وصلاة الكسوف وصلاة الاستسقاء وصلاة العيدين وغيرها. وفيه أن الواجب في باب الصوم صوم رمضان وما سوى ذلك من الصوم فسنن لا يلزم الإتيان بها كصوم الإثنين والخميس والأيام البيض ويوم عاشوراء ويوم عرفة وست من شوال وغيرها. وفيه أن الواجب في باب المال الزكاة المقدرة شرعا وما سوى ذلك من الصدقات فسنن غير لازمة. وفيه أن من اقتصر على فعل الواجبات وترك المحرمات كان من أهل الفلاح واستحق بذلك دخول الجنة ولو لم يفعل أكثر من ذلك وإن كان الأكمل للعبد أن يواظب على فعل المستحبات وترك المكروهات ويسابق في الخيرات لينال الدرجات الرفيعة والمنازل العليا في جنات النعيم

فلا ينبغي للعبد أن يفرط في ذلك ما دام صحيحا معافى قادرا على أداء ذلك والنوافل شرعت لجبر النقص الحاصل في الفرائض وتكثير الثواب ورفعة الدرجات وصلاح القلب وقد ورد فضل عظيم لمن واظب على فعل الخيرات قال تعالى: (أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ). ومواظبة العبد عليها دليل على كمال إيمانه وتفريطه بها دليل على ضعف إيمانه. ومن فقه المؤمن أن يعتني بالفرائض أشد من النوافل ومن قلة فقهه وضعف بصيرته أن يعتني بالنوافل أشد من الفرائض. وقد ورد في رواية (أفلح وأبيه إن صدق) وهذا ظاهره مشكل مع ورود النهي عن الحلف بغير الله والجواب عنه أن هذه اللفظة شاذة لا تصح تفرد بها إسماعيل بن جعفر المدني وقد رواها الحفاظ بدون هذه اللفظة قال ابن عبد البر: (فإن احتج محتج بحديث يروى عن إسمعيل بن جعفر عن أبي سهيل نافع بن مالك بن ابن أبي عامر عن أبيه عن طلحة بن عبيد الله في قصة الأعرابي النجدي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أفلح وأبيه إن صدق قيل له هذه لفظة غير محفوظة في هذا الحديث من حديث من يحتج به وقد روى هذا الحديث مالك وغيره عن أبي سهيل لم يقولوا ذلك فيه وقد روي عن إسمعيل بن جعفر هذا الحديث وفيه أفلح والله إن صدق أو دخل الجنة والله إن صدق وهذا أولى من رواية من روى وأبيه لأنها لفظة منكرة تردها الآثار الصحاح). وعلى فرض صحتها وهو احتمال بعيد فالجواب عنه إما أن يكون صدور هذا اللفظ من رسول الله ليس على سبيل الحلف إنما هي كلمة جرى استعمالها عادة في كلام العرب ولا يقصد بها اليمين من باب اللغو قال البغوي: (قيل تلك كلمة جرت على لسانه على عادة الكلام الجاري على الألسن لا على قصد القسم وكانت العرب تستعملها كثيراً في خطابها تؤكد بها كلامها لا على وجه التعظيم والنهي إنما وقع عنه إذا كان على وجه التوقير والتعظيم له). أو يكون حلفا قاله النبي صلى الله عليه وسلم قبل ورود النهي عنه ثم نسخ ولهذا نظائر كثيرة في الشرع قال ابن عبد البر: (وهذه لفظة إن صحت فهي منسوخة لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحلف بالآباء وبغير الله).

والذين في قلوبهم زيغ من أهل الأهواء يستدلون بالنصوص المتشابهة على إبطال ما ثبت بالنصوص المحكمة من فرض التوحيد وكماله والنهي عن الشرك ووسائله قال

تعالى: (وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا).

(٤) بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة

١ –حديث أبي أيوبَ الأَنصاريّ رضي الله عنه أَنَّ رجلاً قال: (يا رسول الله أخبرني بعمل يُدْخِلُني الجنة، فقال القوم: مَا لَهُ مَالَه فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أَرَبٌ مَّا لَهُ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: تعبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شيئًا وتُقيمُ الصَّلاةَ وَتُؤْتِي الزكاةَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ ذرْها قَال كأنّه كانَ عَلى رَاحِلَتِه) متفق عليه.

٢ – حديث أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ أَعْرابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: (دُلَّني عَلى عَمَلٍ إِذا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الجنة قَالَ: تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقيمُ الصَّلاةَ المكْتُوبَةَ، وَتُؤَدّي الزَّكاةَ الْمفْروضَة وَتَصُومُ رَمَضانَ قَالَ وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ أَزيدُ عَلى هذا فَلَمّا وَلّى، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلى هَذا) متفق عليه.

الشرح:

فيه حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة العمل الذي يدخل الجنة فدخول المؤمن الجنة أشرف مسؤول وغاية الأماني ومنتهى الرجاء ونهاية الطمع مع رضا الله والنظر إلى وجهه الكريم وهذا يدل على علو همة الصحابة رضي الله عنهم وقوة بصيرتهم وتجردهم عن حظوظ الدنيا فالكمل من الصحابة رضي الله عنهم كانوا دائما يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم دخول الجنة ومرافقته ولم تكن الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم وفي صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: كنت

أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: (سل. فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة قال: أو غير ذلك. قلت: هو ذاك. قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود). وفيه أن التزام شرائع الإسلام وصدق الإيمان سبب لدخول الجنة وليست الأماني والدعاوى الكاذبة كحال متأخري أهل الكتاب فمن أراد الجنة فليعمل لها ولا يتمنى على الله الأماني قال تعالى: (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا). وقد ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة: (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته). والجمع بين هذه النصوص أن رحمة الله هي التي تدخل المؤمن الجنة وعمل المؤمن هو الذي يرفع درجته في الجنة إذا دخلها ورحمة الله قريبة لمن أحسن عمله فمن عمل الصالحات استحق الرحمة ومن رحمه الله أدخله الله الجنة. وفيه أن صلة الرحم من أسباب دخول الجنة وهذا يدل على عظم هذا العمل وشرفه وقد أوجب الله صلة الرحم وحث عليه ورغب فيه قال تعالى: (فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه). رواه البخاري. وقطيعة الرحم سبب لدخول النار وللرحم شأن عظيم عند الله يوم القيامة كما في صحيح مسلم قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الرحم متعلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله). وهذا يبين أن دين الإسلام دين عظيم يجمع بين قيام العبد بحقوق الله وعبادته وبين حقوق الخلق والإحسان إليهم وقد دل على هذا الأصل شواهد كثيرة من الكتاب والسنة. وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهذا الرجل بعينه بالجنة وهذا خاص به صلى الله عليه وسلم لأنه يوحى إليه ولا يقر على خطأ وقد شهد لجماعة من الصحابة بالجنة كما شهد على رجال بالنار والمقرر في مذهب أهل السنة والجماعة ألا يشهد لمعين بجنة ولا نار مهما فعل إلا بما شهد له الله عز وجل أو رسوله صلى الله عليه وسلم ولكن يرجى للمحسن ويخاف على المسيء.

(٥) قول النبي صلى الله عليه وسلم بُني الإسلام على خمس

١ –حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: بُنِيَ الإِسْلامُ عَلى خَمْسٍ: شَهادَةِ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ) متفق عليه.

الشرح:

فيه أن دين الإسلام يقوم على هذه الأركان الخمسة وليس مقتصرا عليها بل يشمل أعمالا كثيرة من الفرائض والسنن والآداب ولكن اقتصر عليها النبي صلى الله عليه وسلم لأنها بمنزلة الدعائم التي يقوم عليها البنيان وما سواها من الأعمال تتمة للبنيان فهذه الأركان أهم أعمال الإسلام ويزول الإسلام بفقدها جميعا عن العبد فمن أقر بلسانه ولم يلتزم الشرع ببدنه فأعرض عن الطاعة بالكلية فهذا كافر عند أئمة السنة قال سفيان بن عيينة: (والمرجئة أوجبوا الجنة لمن شهد أن لا إله إلا الله مصراً بقلبه على ترك الفرائض وسمَّوا ترك الفرائض ذنباً بمنزلة ركوب المحارم وليس بسواء لأنَّ ركوب المحارم من غير استحلال معصية وترك الفرائض متعمداً من غير جهل ولا عذر هو كفر). ويزول الإسلام أيضا بترك الصلاة مطلقا جحودا لها باتفاق أهل العلم أما إذا تركها تكاسلا عنها فقد اختلف الفقهاء في كفره فذهب أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه إلى القول بكفره كفرا أكبر لحديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة). رواه مسلم. وقال عبد الله بن شقيق: (كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة). وذهب الجمهور إلى أن تارك الصلاة كسلا لا يكفر كفرا أكبر مخرجا من الملة وإن كان قد أتى بجرم عظيم وحملوا النصوص الواردة على الكفر الأصغر ولا شك أن

هذا المقام خطير لا ينبغي للعبد أن يخاطر فيه قال ابن تيمية: (فأما من كان مصرا على تركها لا يصلي قط ويموت على هذا الإصرار والترك فهذا لا يكون مسلما لكن أكثر الناس يصلون تارة ويتركونها تارة فهؤلاء ليسوا يحافظون عليها وهؤلاء تحت الوعيد).

أما ترك الزكاة والصوم والحج فلا كفر فيها على قول عامة أهل العلم والخلاف فيها شاذ. وهذه الأركان الأربعة فرض عين على كل مسلم لا تسقط عنه إلا إذا كان عاجزا لا يستطيع القيام بها بخلاف سائر الأعمال التي لا تجب على الأعيان إما لكونها سنة أو لكونها تجب على الكفاية أو تجب لأمر عارض وقد اختلف الفقهاء في سقوط الصلاة عن العاجز عن فعل هيئتها بالكلية إذا كان عقله حاضرا كالمصاب بالشلل الكلي فذهب أبو حنيفة إلى سقوطها لأن الصلاة المعهودة شرعا أقوال وأفعال وهو عاجز عنها فصار غير مخاطب بها وذهب الجمهور إلى أنها لا تسقط عنه ما دام عقله يدرك الصلاة لأنه مكلف داخل في الخطاب الشرعي ويصلي بالنية وبطرفه ويجمع بين الصلاتين في وقت إحداهما بلا قصر وهذا هو الصحيح لقوله تعالى: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ). ولم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم الجهاد مع عظم خطره وشرف أمره لأن الأصل في حكمه أنه فرض كفاية ولا يجب إلا في أحوال خاصة ولأنه لا يجب على النساء والصبيان ولأنه ليس مقصودا لذاته وإنما هو وسيلة لإعلاء كلمة الله.

(٦) الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه

١ – حديث ابْنِ عَبّاس قَالَ إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمّا أَتَوُا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: مَنِ الْقَوْمُ أَوْ مَنِ الْوَفْدُ قَالُوا: رَبِيعَةَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزايا وَلاَ نَدَامَى فَقالُوا: يا رَسُولَ اللهِ إِنَّا لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلاَّ فِي الشَّهْرِ الْحَرامِ، وَبَيْنَنا وَبَيْنَكَ هَذا الْحَيُّ مِنْ كُفّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنا وَنَدْخُلْ بِهِ الْجَنَّةَ وَسَأَلُوهُ عَنِ الأَشْرِبَةِ فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: أَمَرَهُمْ بِالإِيمانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا

الإيمانُ بِاللهِ وَحْدَهُ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قالَ: شَهادَةُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقامُ الصَّلاةِ وَإِيتاءُ الزَّكاةِ وَصِيامُ رَمَضانَ وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمغنَمِ الْخُمُسَ وَنَهاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنِ الْحَنْتَمِ وَالدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالمُزَفَّتِ وَرُبَّما قَالَ المُقَيَّرِ وقالَ: احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَراءَكُمْ) متفق عليه.

٢- حَدْيث ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً رضي الله عنه عَلى الْيَمنِ قَالَ: إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبادَةُ اللهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكاةً مِنْ أَمْوالِهِمْ وَتَرَدُّ عَلى فُقَرائِهِمْ فَإِذا أَطَاعُوا بِها فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرائِمَ أَمْوالِ النّاسِ) متفق عليه.

٣- حديث ابْنُ عَبّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بَعَثَ مُعاذًا إِلى الْيَمَنِ فَقالَ: اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَها وَبَيْنَ اللهِ حِجابٌ) متفق عليه.

الشرح:

في هذه الأحاديث جواز التحية بغير السلام بكلام لا محظور فيه ولا تشبه بالكفار وليس على الدوام والسنة المداومة على تحية أهل الإسلام فإن تركها أحيانا وحيا بغيرها جاز ذلك والسلام سنة ورده فرض على الكفاية قال تعالى: (وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا). وفيها نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الانتباذ في الحنتم والدباء والنقير والمزفت وهي أوعية مشهورة مصنوعة من غير الجلد كانت العرب تنتبذ بها وتستعملها في صناعة الخمر لأن النبيذ فيها تتخمر أسرع من غيرها ونهيه عنها من باب سد الذرائع لأن العرب كانت متعلقة بالخمر قريبة العهد به ولذلك حرص الشارع على قطع جميع الطرق والوسائل المفضية لشرب الخمر ثم لما ذلت نفوسهم بالإسلام واطمأنت بتحريم الخمر رخص فيها النبي صلى الله عليه وسلم آخر الأمرين. وفيها مشروعية الدعوة إلى الله والحرص عليها لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بحفظ العلم وتبليغه من ورائهم ممن غاب عن سماع العلم وقد وردت نصوص كثيرة تدل على فضل الدعوة وأنها من أجل الطاعات وأنفع الأعمال المتعدية وهي من

أعظم وسائل نشر الدين قال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ). وفيها أنه ينبغي على الداعية أن يكون عارفا بأحوال المدعوِّين مطلعا على عقائدهم ومعارفهم وثقافتهم فالنبي صلى الله عليه وسلم أخبر معاذا رضي الله عنه بأن أهل اليمن أهل كتاب وكانوا من اليهود وهم أهل علم وشبهة ليتهيأ معاذ ويستعد لدعوتهم ويكون على معرفة بحالهم وهذا أصل عظيم في الدعوة فالمدعوون تختلف أحوالهم وكل قوم يمتازون بمبادئ عن غيرهم فقد يكونوا من أهل الشبهات وقد يكونوا من أهل الشهوات وقد يكونوا لا دين لهم وقد يكونوا وثنيين أو أهل كتاب أو ينتسبون للإسلام وهم أهل شرك أو يكونوا أهل بدعة وتقليد مذموم فينبغي على الداعية مراعاة هذا الأصل. وفيها أن النبي صلى الله عليه وسلم أرشد معاذا رضي الله عنه إلى ابتدائهم بالدعوة إلى التوحيد وأصل الدين وفي هذا إشارة إلى أهمية الدعوة إلى العقيدة قبل كل شيء والاعتناء بها ولهذا يجب على الداعية أن يركز في دعوته دائما على التوحيد وأن يكثر من تكراره ولا تقتصر دعوته على فضائل الأعمال وبعض الشعائر وقضايا العصر كحال كثير من الجماعات اليوم الذين انحرفوا عن فهم الدين الصحيح وساروا على غير طريقة النبي صلى الله عليهم وأصحابه ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كثيرا ما يدعون إلى تحقيق التوحيد وتنقيته من الشرك والشوائب وتعبيد الناس لربهم وإخلاص العمل لله والتعلق بالله والدعوة إذا خلت من تجريد التوحيد واتباع السنة كانت على ضلالة. وفيها أن النبي صلى الله عليه وسلم أرشد معاذا رضي الله عنه إلى دعوتهم إلى الإسلام شيئا فشيئا وليس دفعة واحدة وفي هذا بيان لأصل مهم في دعوة الكافر وهو التدرج في دعوته لئلا ينفر من فعل جميع شرائع الإسلام فيدعى إلى أصل الدين فإن أقر به وانقاد له دعي إلى الصلاة ثم الزكاة وسائر الشرائع فإن أطاع دعي إلى ترك الفواحش والمحرمات وهكذا يتدرج معه في دعوته حتى لا يثقل عليه لأول وهلة فينفر ويرتد على عقبيه وهذا الحكم فيمن كان متثاقلا في قبول الحق أما من كان طالبا للحق راغبا في الإسلام من تلقاء نفسه وعنده عزيمة ولا يخشى من نفوره فهذا يخاطب بجميع الدين ولا يتدرج معه ومرجع ذلك إلى اجتهاد الداعية ومعرفته بحال المدعو. وقوله: (فترد على فقرائهم)

حمل الجمهور الضمير على أهل اليمن وهو الأقرب وفيه دليل على عدم نقل الزكاة إلى بلد آخر لكن إن دعت المصلحة الشرعية لنقله فلا حرج كنقلها لقرابته أو لفقراء أشد حاجة من فقراء بلده أو مراعاة لنازلة وقعت بالمسلمين. وفيه النهي عن أخذ الجابي الزكاة من أطيب المال وإنما يأخذ من متوسط المال ولا يأخذ من رديئه فيراعي حظ المعطي المالك فلا يجحفه ويراعي حظ الآخذ الفقير فلا ينقصه. وفيه خطر الظلم على صاحبه وأن الله جعل دعوة المظلوم مستجابة على من ظلمه لما له من الحق ولو كان كافرا لأن الله حرم الظلم على نفسه وأوجب العدل بين عباده قال تعالى: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا). وهذا يوجب للمسلم الخوف الشديد من ظلم الناس في أموالهم وحقوقهم وقد وردت قصص وأحوال عجيبة عن السلف في استجابة دعوة المظلوم.

(٧) أول الإيمان قول لا إله إلا الله

١-حديث المُسَيَّبِ بْنِ حَزْنٍ قَالَ: لَمّا حَضَرَتْ أَبا طَالِبٍ الْوَفاةُ جاءَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبا جَهْلِ بْنَ هِشامٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبي أُمَيَّةَ بْنِ المُغِيرَة، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لأَبي طالِبٍ يا عَمِّ قُلْ لا إِلهَ إِلاّ اللهَ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِها عِنْدَ اللهِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنِ أَبي أُمَيَّةَ يا أَبا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِب فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَعْرِضُها عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ المَقالَةِ حَتّى قَالَ أَبو طَالِبٍ، آخِرَ ما كَلَّمَهُمْ، هُوَ عَلى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبى أَنْ يَقُولَ لا إِلهَ إِلاّ اللهُ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أَمّا وَاللهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ما لَمْ أُنْهَ عَنْكَ فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى فِيهِ (مَا كانَ لِلنَّبِي) الآية. متفق عليه.

الشرح:

فيه حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هداية عمه وقرابته امتثالا لقوله تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ). فينبغي على الداعية أن يجعل لقرابته نصيبا في الدعوة كما للأبعدين ولا يهملهم لأن لهم حقا خاصا عليه وهم أولى الناس بالخير والهداية. وفيه أمل الداعية وعدم يأسه من هداية الناس ولو عظم ضلالهم وطالت عداوتهم وانتهازه الفرص المناسبة لدعوتهم فالنبي صلى الله عليه وسلم لم ييأس من هداية عمه عند احتضاره ورحيله من الدنيا. وفيه أن الدخول في الإسلام يكون بالتلفظ بالشهادتين فهي أول كلمة تجب على العبد ولا يجب عليه في دخوله للإسلام أمر آخر خلافا لمن ضل من المتكلمين فأوجب النظر في الآيات أو الشك ثم النظر وغير ذلك من الترهات. وفيه خطورة صحبة أهل الضلال والغواية من الكافرين والفاسقين فهم يصدون العبد عن اتباع الحق ويغرونه بالباطل ويصرفونه عن الاستماع لكل موعظة لحرصهم على بقائه ومشاركته لهم في ضلالهم ولو أيقنوا خطأهم حتى لا يكون أحسن حالا منهم كما فعل صناديد قريش مع أبي طالب فذكروه بدين آبائه فآثر حب العشيرة على اتباع الحق وخشي أن يعيروه بذلك كما ورد في صحيح مسلم. وفيه أن هداية التوفيق واستجابة القلب لداعي الحق والانقياد له خاص بالله عز وجل لا يقدر عليها إلا هو سبحانه لأنه يملك القلوب ويصرفها كيف شاء أما الداعية فيقوم بهداية الإرشاد والتوجيه فحسب فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يستطع هداية عمه مع كمال إخلاصه ونصحه وفصاحته فأنزل الله قوله: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ). وفيه أنه يحرم على المسلم أن يستغفر ويترحم ويصلي على من مات على الكفر ولو كان من أقرب الناس إليه فلا يعامله بعد موته معاملة المسلمين لأن الله حرم الجنة على الكافرين وهذا من مقتضيات الولاء والبراء فالمسلم يبرأ من الكافر حيا وميتا كما نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الاستغفار لعمه أبي طالب فقال تعالى: (مَا

كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ). وإنما جعل الله له شفاعة خاصة في عمه تخفف عنه العذاب في جهنم جزاء لما قام به في الدنيا من إحاطة النبي ونصرة دعوته والذب عنه. وقد دلت الأدلة الصحيحة الصريحة على أن أبوي النبي صلى الله عليه وسلم ماتا مشركين لحكمة أرادها الله ففي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه: (أن رجلا قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: في النار. فلما قفى دعاه فقال: إن أبي وأباك في النار). وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: (استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت). وما روي في إسلامهما ونجاتهما فمنكر وضعه المتصوفة واتفق الحفاظ على إنكاره ورده وقد شذ السيوطي في هذه المسألة وتكلف في رد الأحاديث الصحيحة وخالف المحققين من أهل السنة.

(٨) من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار

١ –حديث عُبادَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ. وزاد أحد رجال السند مِنْ أَبوَابِ الْجَنَّةِ الثمانِيَةِ أَيُها شاءَ) متفق عليه.

٢ – حديث مُعاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنا أَنا رَدِيفُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، لَيْسَ بَيْني وَبَيْنَهُ إِلاّ أَخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقالَ: يا مُعاذ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ سَارَ ساعَةً ثُمَّ قَالَ: يا مُعاذ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ سارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يا مُعاذ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ قَالَ: هَلْ تَدْري ما حَقُّ اللهِ عَلَى

عِبادِهِ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللهِ عَلى عِبادِهِ أَنْ يَعْبُدوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يا مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي ما حَقُّ الْعِبادِ عَلى اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ الْعِبادِ عَلى اللهِ أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ) متفق عليه.

٣- حديث مُعاذ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَلى حِمارٍ يُقالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: يَا مُعاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلى عِبادِهِ وَما حَقُّ الْعِبادِ عَلى اللهِ قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلى الْعِبادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبادِ عَلى اللهِ أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَقُلْتُ يا رَسُولَ اللهِ: أَفَلا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ: لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا) متفق عليه.

٤- حديث أَنَسِ بْنِ مالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَمُعاذٌ رَدِيفُهُ عَلى الرَّحْلِ، قَالَ: يا مُعاذُ بْنَ جَبَلٍ قَالَ: لَبَّيْكَ يا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: يا مُعاذُ قَالَ: لَبَّيْكَ يا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ ثَلاثًا، قَالَ: ما مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلاَّ حَرَّمَهُ اللهُ عَلى النَّارِ قَالَ: يا رَسولَ اللهِ أَفَلا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا قَالَ: إِذًا يَتَّكِلُوا وَأَخْبَرَ بِها مُعاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا) متفق عليه.

الشرح:

فيه أن من شهد بهذه الأمور الخمسة بالألوهية والرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم ورسالة عيسى عليه السلام وخلقه وثبوت الجنة وثبوت النار استحق بذلك دخول الجنة. والشهادة تعني الإقرار عن علم واعتقاد وتصديق ويقين وقبول وانقياد أما من تلفظ بذلك عن غير اعتقاد أو كان شاكا أو مكذبا في باطنه أو غير منقاد بفعله فلا ينفعه ذلك عند الله ولا يقبل منه في الآخرة ولذلك لا تنفع لا إله إلا الله من تلبس بالشرك الأكبر وعبد الأولياء من دون الله. وفيه أن محمدا صلى الله عليه وسلم بشر كسائر الناس يعرض له ما يعرض لهم من الآفات وينسى كما ينسون ويغضب مثلهم إلا أن الله اصطفاه برسالته وفضله على خلقه فلا يحل لأحد أن يعتقد فيه وينزله فوق منزلته التي أنزله الله تعالى فيدعي فيه علم الغيب أو تصرفه بالكون أو غير ذلك من

الصفات والأوصاف التي لا تصلح إلا لله وهي من خصائصه تفرد بها عما سوى خلقه. وفيه دليل على أن عيسى عليه الصلاة والسلام عبد لله مرسل من قبله مخلوق بكلمة من الله ألقاها على أمه مريم فحملت بها معجزة وخرقا للعادة ثم ولدته بغير أب وقد أضافه الله إليه من باب التشريف كناقة الله وبيت الله قال تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ). فهو ليس إله ولا ابنا لله جل جلاله وقد ضل في عيسى عليه السلام طائفتان:

الأولى: طائفة جفته وأبغضته وسعت في قتله وكفرت به وادعت أنه ابن زنا وهم اليهود لعنهم الله قال تعالى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ).

الثانية: طائفة والته وغلت فيه وادعت فيه الألوهية واعتقدت موته وهم النصارى لعنهم الله وقد أبطل الله مذهبهم قال تعالى: (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ).

وفيه أن الجنة والنار ثابتتان مخلوقتان الآن باقيتان لا تفنيان أبدا وجميع ما ذكر من النعيم والعذاب فيهما حق لا مرية فيه وهذا اعتقاد أهل السنة والجماعة يؤمنون بهما على سبيل الحقيقة خلافا لمن أنكرهما أو كفر بهما أو تأولهما أو قال بفنائهما من الملحدين والفلاسفة والمعتزلة وغيرهم. وفيه أن من مات على التوحيد واجتناب الشرك كان مستحقا لدخول الجنة على حسب عمله فإن رجحت حسناته دخلها مباشرة وإن رجحت سيئاته فأمره إلى الله إما يغفر له وإما يعذبه ثم يستقر أمره إلى الجنة. وفيه تواضع النبي صلى الله عليه وسلم في ركوبه الحمار على خلاف عادة الأشراف والأمراء الذين يتباهون في مراكبهم ومساكنهم ومآكلهم أما النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب هيئة المساكين ولم يكن يتكلف في أمور الدنيا يسكن ويلبس ويأكل ما تيسر له لأنه جعل الدنيا ممرا ولم يجعلها مقرا وفي مسند أحمد عن ابن عباس: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال: يا نبي الله لو اتخذت فراشا أوثر من هذا ؟ فقال: ما لي وللدنيا ؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها). وفيه جواز

استعمال الدابة فوق العادة مالم يشق ذلك عليها أو يلحق الضرر بها. وفيه استعمال العالم أسلوب السؤال للمتعلم ليحفز همته ويسترعي انتباهه لما سيلقيه من العلم وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من هذا الأسلوب مع أصحابه. وفيه ورع الإنسان إذا سئل عن مسألة لم يعلمها أو لم يحط بها أو لم يتبين له وجه الصواب فيها أن يجيب بالنفي ويكل العلم إلى الله سبحانه وتعالى وقد كان هذا دأب أئمة السلف. وفيه أن لله سبحانه وتعالى حقا على عباده أن يفردوه بالعبادة ويخلصوا له ولا يشركوا أحدا في عبادته مهما كان لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا ولي ولا وثن ولأجل ذلك خلقهم وبعث إليهم رسله وأنزل كتبه قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ). وفيه أن الله أوجب على نفسه تفضلا منه ورحمة وشفقة بعباده أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا والمراد لا يخلد في ناره من مات موحدا مجانبا للشرك وهذا مقتضى الجمع بين الأدلة في هذا الباب وحق الله وعد منه نافذ قطعه على نفسه لطفا منه ورحمة لم يوجبه أحد من الخلق عليه خلافا للمعتزلة قبحهم الله. وفيه جواز الإسرار ببعض العلم وكتمه عن العامة وتخصيصه بمن رجح عقله وعظم فهمه وعلمه إذا اقتضت المصلحة ذلك وكانت راجحة كما خص النبي صلى الله عليه وسلم معاذا دون سائر أصحابه لكمال فقهه مع صغر سنه. وفيه بيان مسألة مهمة في خطاب الدعوة وهو إذا ترتب على إشاعة مسألة خفية وإظهار قول فتنة الناس في دينهم أو تركهم العمل الصالح وركونهم إلى الرجاء كان من الفقه الإمساك عن ذلك كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم معاذا عن إخبار العامة بالبشارة لئلا يتكلوا عليها ويتركوا العمل وهذا له نظائر في الشرع.

(٩) شعب الإيمان

١- حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (الإِيمانُ بِضْعٌ

وَسِتُّونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) متفق عليه.

٢- حديث ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الأَنْصارِ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الإِيمانِ) متفق عليه.

٣- حديث عِمَرانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (الحَيَاءُ لا يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ) متفق عليه.

الشرح:

فيه أن الإيمان يشتمل على أعمال كثيرة ومتنوعة كلها تدل على إيمان العبد منها ما يتعلق بعمل القلب ومنها ما يتعلق بعمل اللسان ومنها ما يتعلق بعمل الجوارح وذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن عددها بضع وستون وفي رواية بضع وسبعون وقد حاول بعض العلماء تعيينها اجتهادا منهم ولا يصح في ذلك خبر مرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم قال القاضي عياض: (تكلف جماعة حصر هذه الشعب بطريق الاجتهاد وفي الحكم بكون ذلك هو المراد صعوبة ولا يقدح عدم معرفة حصر ذلك على التفصيل في الإيمان). وأعلى هذه الأعمال قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى من الطريق وهذا يدل على أن خصال الإيمان متفاوتة في المنزلة والأجر متنوعة في البر وكل ما يقرب إلى الله ويحبه ويرضاه من قول وعمل فهو داخل في الإيمان. وفيه أن الحياء من شعب الإيمان وهذا يدل على فضله والحياء عمل قلبي يبعث العبد على تحليه بكل ما يمدح به وترك كل ما يشينه ويذم به والله سبحانه حيي يحب الحياء كما ورد في حديث يعلى بن أمية المخرج في السنن. وفيه أن الحياء من العبد ممدوح في كل حال وفي كل أمر خلافا لما يظنه بعض العامة من أنه يكون ضعفا وخورا ولذلك لما نصح الرجل أخاه في ترك كثرة الحياء حتى لا يمنعه من استيفاء حقوقه أنكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم وبين له أن الخير في فعله لا في تركه وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها يعرف فرحه وحزنه وغضبه في وجهه الشريف فلا يذم الحياء من العبد ولو هضم حقه وانتقصه الناس. وفيه أن الحياء يدعو لكل خير وعاقبته

حسنة في الدنيا والآخرة لكن ليس من الحياء الممدوح شرعا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وليس منه أيضا ترك السؤال عن مسائل العلم والسكوت عن بيان الحق كما قالت عائشة رضي الله عنها: (نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين). وقال مجاهد: (لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر). وفي الحديث إشارة إلى أنه ليس كل نصيحة تكون مقبولة وموافقة للحق وإنما تقبل إذا كانت موافقة للشرع أما إذا كانت مخالفة فلا تقبل فالميزان هو الشرع لا اجتهادات الناس فالغيرة والعلم ركنان مهمان في النصيحة الشرعية والغيرة وحدها لا تكفي وكم من مجتهد في النصيحة لم يوفق للحق لجهله بالشرع مع غيرته وهذا كثير في مسلك الخوارج الذين لا يفقهون الحقائق الشرعية وسلفهم الرجل الشقي الذي أنكر على النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في حديث جابر بن عبد الله قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجعرانة منصرفه من حنين وفي ثوب بلال فضة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقبض منها يعطي الناس فقال يا محمد اعدل قال ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق فقال معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية). متفق عليه.

(١٠) الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله

١-حديث أَبِي بَكْر وَعُمَر قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: (لَمّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَكانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَب، فَقالَ عُمَرُ رضي الله عنه: كَيْفَ تُقاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتّى يَقُولوا لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ، فَمَنْ قالَها فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ، وَحِسابُهُ عَلى اللهِ

فقالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللهِ لأُقاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاةِ وَالزَّكاةِ، فَإِنَّ الزَّكاةَ حَقُّ الْمالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عَناقًا كانوا يُؤَدُّونَها إِلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَقاتَلْتُهُمْ عَلى مَنْعِها قالَ عُمَر رضي الله عنه: فَوَاللهِ ما هُوَ إِلاَّ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقّ) متفق عليه.

٢- حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتّى يَقُولُوا لا إِلهَ إِلاّ اللهُ، فَمَنْ قَالَ لا إِلهَ إِلاّ اللهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنّي نَفْسَهُ وَمالَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ، وَحِسابُهُ عَلى اللهِ) متفق عليه.

٣- حديث ابْنُ عُمَر أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتّى يَشْهَدوا أَنْ لا إِلهَ إِلاّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَيُقيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ، فَإِذا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنّي دِماءَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ إِلاّ بِحَقِّ الإِسْلامِ، وَحِسابُهُمْ عَلى اللهِ) متفق عليه.

الشرح:

في هذه الأحاديث أن القتال مشروع في الإسلام لإعلاء كلمة الله ونشر الدين وإزالة العوائق التي تمنع الناس من دخولهم في دين الإسلام قال تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ). وقد انتشر الإسلام في كثير من البلاد بالسيف كما أنه انتشر أيضا بالكلمة والبيان. وفيها أن الغاية من قتال الكفار دخولهم في حكم الإسلام فالكفار يخيرون بين خصال ثلاث كما دلت السنة على ذلك إما أن يسلموا وإما أن يعطوا الجزية وإما أن يقاتلوا فإذا أسلموا أو أعطوا الجزية كف عن قتالهم وإلا قوتلوا وقتال الكفار منوط بالإمام الشرعي وقدرته ونظره في المصالح والمفاسد سئل أحمد بن حنبل: (أيكون الرجل في الجهاد بين الصفين يبارز بغير إذن الإمام؟ فقال: لا والله). أما قتال الخوارج فغير مشروع لأنه بلا إذن الإمام وتحت راية عمية ومخالف لمذهب السلف ومبني على عقيدة الغلو في التكفير. وتثبت العصمة لمن نطق بالشهادتين ودخل في دين الإسلام في دمه وماله فيحرم التعرض له إذا أسلم مهما كان الباعث على إسلامه أو احتفت به قرائن ودلت السنة

الصحيحة أيضا على عصمة الذمي والمعاهد في دمه وماله فلا يحل انتهاك حرمته والخوارج يخالفون أهل السنة في هذا المسألة. وفيها أنه لا يباح دم المسلم إلا بحق الإسلام فيما دل الشرع على إباحة دمه والاقتصاص منه وقد دل على إباحة دم القاتل والثيب الزاني والمرتد عن دينه المفارق للجماعة ويلحق بذلك ما كان في معناه. وفيها أن الحكم والتعامل مع المسلم بحسب الظاهر أما السرائر فهي إلى الله لا يطلع عليها أحد إلا الله فمن أظهر لنا خيرا أحسنا به الظن وعاملناه به ووكلنا سريرته إلى الله ومن أظهر لنا شرا أسأنا به الظن وعاملناه به وقد كان الوحي يطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أحوال الناس صدقهم وكذبهم ثم انقطع الوحي بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يبق لنا إلا العمل بالظاهر ولا يسعنا إلا ذلك فلا يجوز لأحد أن يطعن في نيات الناس وأن يفتش عن دواخلهم. وفيها أنه إذا امتنع أهل بلد عن القيام بشعيرة من شعائر الدين الظاهرة وتواطأوا على ذلك قاتلهم الإمام حتى يمتثلوا هذه الشعيرة أو تستأصل شوكتهم ولو أدى ذلك إلى قتالهم. وفيها أن العالم قد يشتبه عليه بعض المسائل الواضحة في الدين ويخفى عليه الحق في ذلك ولو كمل إيمانه وكثر علمه لكن إذا روجع في ذلك وظهر له الحق يجب عليه اتباعه والعمل به ورجوعه يدل على صدقه مع الله وفضيلته وإيثاره الحق على نفسه والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل وهذا التصرف كثير في سلوك السلف الصادقين.

(١١) بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل

١ –حديث عبْد اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أَيُّ الإِسْلامِ خَيْرٌ قَالَ: (تُطْعِمُ الطَّعامَ وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ) متفق عليه.

٢ – حديث أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالُوا يا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الإِسْلامِ أَفْضَلُ قَالَ:

(مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ) متفق عليه.

الشرح:

فيه مشروعية السؤال عن أفضل أعمال الإسلام وخصاله. وفيه أن الأعمال منها ما هو فاضل راجح على غيره ومنها ما هو مفضول فينبغي على العبد أن يتحرى أفضل الأعمال ويشتغل بها والعمل يفضل على غيره لكثرة ثوابه واهتمام الشارع به وتعدي نفعه إلى الغير وقد ذكر أهل العلم أن المفضول يقدم على الفاضل بحسب اختلاف الأحوال واختلاف العامل فينبغي على المكلف مراعاة ذلك كأن يكون المفضول مشروعا في هذا الوقت أو متيسرا فعله أو أنفع لقلب العبد وأصلح لإيمانه وغير ذلك من المرجحات. وفيه أن إطعام الطعام للصديق والفقير من أفضل الأعمال إذا ابتغي بذلك وجه الله وأخلص فيه النية وهو عمل متعد نافع للغير قال تعالى: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا). ويتأكد في الأزمان الفاضلة والأماكن الفاضلة ووقت الفقر والشدة وقد ورد في السنة فضل إطعام الجار. وفيه أن السلام على الغير عمل فاضل ويختص بالمسلم دون الكافر والمشروع أن يكون عاما لكل مسلم لا يختص بطائفة أو قرابة فينبغي على المسلم أن يكون متواضعا فيسلم على من يعرف ومن لا يعرف ليدرك الثواب ويفشو السلام وتشيع المحبة بين أفراد المجتمع والسلام من أعظم أسباب فشو المحبة كما ورد في صحيح مسلم: (لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم). وقد زهد بعض المسلمين بهذا الفضل الكبير ومن أشراط الساعة ألا يسلم الرجل إلا على من يعرف. وفيه أن كف الأذى عن المسلمين بالقول والفعل عبادة عظيمة من كمال الإيمان سواء كان لعموم المسلمين أو خاصتهم قال تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً). وقد نهى الشرع عن كف الأذى لأنه يفضي إلى وقوع العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع ويؤدي إلى انتشار الفوضى وزعزعة الأمن الاجتماعي وقطيعة الرحم. وقد ورد ذم شديد في إيذاء من كان له حق خاص كالوالد والقريب والجار. والمؤمن يؤجر على ذلك إذا كان محتسبا أما إذا

انكف أذاه عن غيره لمانع وعائق من الله أو من الخلق فلا ثواب له لأنه لا قصد له. ومن كان له شر غالب عليه يخشى منه إيذاء الناس عند مخالطتهم استحب له أن يعتزل الخلق إلا الجمع والجماعات فيشهدها وقد ورد فضل لمن اعتزل الخلق كفا لشره كما في الصحيحين: (قيل : يا رسول الله أي الناس أفضل فذكر المجاهد ثم قال: مؤمن في شعب من الشعاب يتقى الله ويدع الناس من شره). والعزلة ضربان:

١-عزلة بدنية: بحيث لا يرى أحدا من الخلق.

٢-عزلة قلبيه: بحيث يعتزل الشر وأهله وهو مخالط للخلق كما قال ابن المبارك في تفسير العزلة: (أن تكون مع القوم فإذا خاضوا في ذكر الله فخض معهم وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت). وفي مسند أحمد عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم: (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرا من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم). والخلطة بالناس مع الصبر خير من العزلة إلا في الفتنة وغلبة الشر والناس يتفاوتون في هذا الباب على حسب إيمانهم وحلمهم واتساع أخلاقهم وينبغي على المؤمن أن يكون فقيها يؤثر الخلطة إذا كان فيها مصلحة لدينه وإحسانه ويؤثر العزلة إذا كان فيها مصلحة لدينه وقلبه وهذا مسلك وسط في هذا الباب. ومن قلة التدين أن يكون المرء مكثرا من النوافل ولا يتورع عن إيذاء المسلمين.

(١٢) بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان

١-عن أَنَسٍ عَنِ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمانِ، أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمّا سِواهُما، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ). متفق عليه.

الشرح:

فيه أن الإيمان له حلاوة يجدها المؤمن في قلبه لذة ونورا وبشاشة للإيمان كما يجد حلاوة للعسل في فمه فالمؤمن كامل الإيمان في روحانية ونعيم وأنس بالله لا يمكن وصفه ولا يقدر قدره إلا من فتح الله عليه ولا يحصل ذلك للعبد إلا إذا تحلى بهذه الخصال الثلاث وكان حريصا على الطاعة. وإنما يجد القلب حلاوة الإيمان إذا كان سليما من الأهواء المضلة والشهوات المحرمة أما إذا مرض لم يجد تلك الحلاوة كالبدن المريض لا يحس بحلاوة الطعام. وفيه أن تقديم العبد لمحبة الله والرسول صلى الله عليه وسلم على سائر المحبوبات من الخصال التي تكمل إيمان العبد فينبغي على العبد أن يقدم رضا الله ورسوله ومحبتهما على كل شيء من عرض الدنيا وملذاتها إذا حصل بينهما تعارض فيجعل شرع الله وطاعته هو الغاية ويجعل ما سوى ذلك وسيلة لتحقيق الغاية فيترك ما نهى الله عنه ويتقيد بما أذن الله فيه من مال وتجارة وشهوة وقد ورد الوعيد لمن قدم محبوبات الدنيا على محبة الله ورسوله والجهاد قال تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ). وفيه أن محبة المسلم أخاه لأجل الله لا لأجل عرض من الدنيا أو القرابة من خصال الإيمان العظيمة والإخوة في الله من أوثق عرى الإيمان قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ). وقد ورد فضل عظيم للمحبة والمؤاخاة في الله وعاقبتها حسنة في الدنيا والآخرة وهي عون على الدعوة والطاعة وللأسف صار كثير من الناس اليوم يتآخون ويتواصلون لأجل الدنيا والله المستعان. فإذا أحب العبد إنسانا لا لنسبه ولا لبلده ولا لماله وجاهه وإنما أحبه في الله لما اتصف به من الإيمان والعمل الصالح كان ذلك دليلا على توقيره لله ومحبته له وذاق برد اليقين والاطمئنان بقلبه. وقد أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أقواما غرباء لا تربطهم بهم رابطة النسب أو البلد أو المال أحبوهم في الله ولله وآثروهم على أنفسهم. وفيه أن من خصال الإيمان التي يتحقق بها إيمان العبد وتتم موالاته لله ورسوله أن يكره الكفر ويخاف ويحذر من هذا الخطر العظيم على دينه كما يكره ويخاف

النار التي تحرق بدنه وماله لأن الكفر نار تحرق الدين قال الله تعالى: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ). وهذا يقتضي منه أن يتبرأ من الكفار الذين جحدوا ربه وخالفوا رسوله صلى الله عليه وسلم ويفر بدينه من كل ما يوجب فساد إيمانه ووقوعه في الكفر والعياذ بالله ويكون حريصا على موته على الإسلام فإن العبد إذا كره شيئا وخافه فر منه فسلم منه والبراءة من الكفر وأهله من أعظم أصول الدين ومودتهم ومحبتهم منافية للإيمان قال تعالى: (لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوۤاْ ءابَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ). وقد تساهل بعض المسلمين اليوم في كراهية الكفر وأهله وصاروا يوالون الكفار ويوادونهم ويحسنون الظن بهم ومن وقر الكفار الذين أذلهم الله فقد خفر ذمة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

(١٣) وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأَهل والولد والوالد والناس أجمعين

١–عن أَنَس قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ والِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ). متفق عليه.

الشرح:

فيه أن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم من أصول الإيمان التي لا يصح إيمان العبد إلا بها. وأن محبته صلى الله عليه وسلم فرض على كل مسلم فمن أبغضه أو توقف في محبته فهو كافر بالله وقد جعل الله اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم دليلا على محبة الله قال تعالى: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ). ومحبته صلى الله عليه وسلم تقتضي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر

واجتناب ما عنه زجر وليست محبته صلى الله عليه وسلم مجرد دعاوى فارغة وأماني كاذبة وإنما محبته إتباع سنته ونصرة دينه والعمل بشرعه وتولي أصحابه والبراءة ممن شانئه وعاداه. وقد ضل في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم طائفتان:

الطائفة الأولى: ادعوا محبته وغلوا في مدحه وخلعوا عليه الصفات الإلهية وزعموا أنه يتصرف في الكون ويعلم الغيب ويقضي الحاجات ويكشف الكربات ودعوه من دون الله فضلوا وأخطئوا الطريق وجانبوا الصواب وهذا مسلك الصوفية وقد نهى الله عز وجل عن الغلو فقال تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ). ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إطرائه كما في البخاري: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله). وبيّن أن الغلو في الصالحين هو سبب وقوع الشرك.

الطائفة الثانية: قوم جفوه وزهدوا في محبته وطعنوا في شمائله وردوا خبره وحاكموا تصرفاته إلى العقل وقدموا عليه أقوال الفلاسفة واعتبروه مجرد عبقري أو عظيم فهلكوا والعياذ بالله وهذا مسلك الزنادقة قاتلهم الله.

وإنما محبته صلى الله عليه وسلم تكون موافقة للشرع الذي شرعه الله قصدا لا غلو فيها ولا جفاء وخير من امتثل هذه المحبة الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم ممن اقتفى سبيلهم واتبع طريقتهم من السلف الصالح. وفيه وجوب تقديم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على الوالد والولد والناس أجمعين وإنما خص الوالد والولد لأنهما أشرف قرابة الإنسان وأعظم محبة من غيرهما فيقدم المرء محبته صلى الله عليه وسلم على محبة النفس والخلق القريب منهم والبعيد وهذا يقتضي منه تقديم طاعته على طاعتهم فلا طاعة لمخلوق في معصية الله ورسوله. وفيه إباحة محبة الأهل والولد والعشيرة محبة طبيعية فطرية مالم تخالف الشرع فلا يؤاخذ المؤمن في محبة أهله وماله وعشيرته وبلده لأن ذلك لا ينافي محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم إذا كان في حدود الشرع ولم يترتب عليه مفسدة.

(١٤) الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأَخيه ما يحب لنفسه من الخير

١-عن أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ). متفق عليه.

الشرح:

فيه دليل على أن من كمال الإيمان أن يحب المرء لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه من الخير والإحسان فكما يحب لنفسه السعة في الرزق والعافية في البدن والسلامة في الدين ينبغي له أن يحب ذلك لأخيه ويتمنى حصوله له وهذا يقتضي منه سلامة القلب تجاه إخوانه والنصح لهم والقيام بحقوقهم والسعي في مصالحهم ومعاملتهم بالتقدير والاحترام كما يحب أن يعاملوه بذلك وقد وصف الله الأنصار رضي الله عنهم بهذه الخصلة الكريمة فقال تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ). ومما ينافي تلك الخصلة العظيمة الكبر والغل والحسد والغش لأحد من المسلمين. والحسد من أخطر خصال السوء التي تدل على ظلم المرء وسوء ظنه بربه وشحه وقد ذم الله الحسد فقال تعالى: (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ). والحسد أن يتمنى الحاسد زوال النعمة عن أخيه المحسود وإن لم تحصل له وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحسد بقوله: (لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث). رواه مسلم. وقال الحسن البصري: (ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد نفس دائم وحزن لازم وغمٌّ لا ينفد). ومن أعظم ما يمنع المرء من القيام بهذا العمل الجليل محبة الخير للمسلمين طمعه وشحه وحرصه على الدنيا مما يجعله يعيش لنفسه أنانيا لا يرى إلا تحقيق مصلحته ولو كان عن طريق انتقاص حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل. وإنما شرعت محبة الخير للمسلمين لأن الإسلام حريص على نشر المودة والرحمة بين

المسلمين وجمع الكلمة. وهذه المحبة الإيمانية خاصة بالمسلم أما الكافر فلا يشرع للمسلم محبة الخير له كما يحب لنفسه ولا ينصح له قال أحمد بن حنبل: (ليس على المسلم نصح الذمي وعليه نصح المسلم). لكن يجب أن يعامله بعدل وإنصاف ولا يخونه ولا يغدر به وينبغي أن يحرص على هدايته لإظهار الدين وتحصيل الثواب الجزيل.

(١٥) الحث على إكرام الجار والضيف وقول الخير أو لزوم الصمت وكون ذلك كله من الإيمان

١–عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ). متفق عليه.

٢– عن أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيّ قَالَ: سَمِعَتْ أُذُنَايَ وَأَبْصرَتْ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جارَهُ، وَمَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جائِزَتَهُ، قَالَ: وَما جائِزَتُهُ يا رَسُولَ اللهِ قالَ: يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيافَةُ ثَلاثَةُ أَيَّامٍ فَما كانَ وراءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ، وَمَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ). متفق عليه.

الشرح:

فيه إن إكرام الجار والإحسان إليه من خصال الإيمان. وقد اعتنى الشارع بالجار عناية فائقة وحض على بره وإكرامه مهما كان دينه وصلة قرابته قال تعالى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ). وفي الصحيحين عن عائشة وابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه).

والإحسان إلى الجار يكون ببذل كل معروف من السلام والسؤال والهدية والعيادة والتشييع والزيارة والمشاركة له في أفراحه وأحزانه. ويكون أيضا بكف الأذى عنه من كل ما يؤذيه قولا وفعلا حسا وعرفا من الشتم ورفع الصوت وسوء الظن وإتلاف المال والمضايقة في المرفق والاعتداء على ولده وانتهاك عرضه وحرمته والظلم بجميع الوجوه. وكلما قرب الجار كان حقه آكد وأعظم من غيره. والإحسان إلى الجار من محاسن دين الإسلام. وقد ورد وعيد شديد لمن آذى الجار وانتهك حرمته. وفيه أن إكرام الضيف من خصال الإيمان التي رغب فيها الشرع فينبغي للمسلم أن يبذل حق الضيف طيب النفس سمح الخاطر مستقبلا له بالبشر والحفاوة مكرما له من أطيب طعامه. فإكرام الضيف يشمل تقديم الطعام وحسن الاستقبال وطيب المسكن وبالجملة ينبغي على المضيف أن يحرص على تحقيق راحة الضيف وأنسه. والواجب في الضيافة يوم وليلة واليوم الثاني والثالث فسنة تطوع وما زاد على ذلك فصدقة من الصدقات. وينبغي على الضيف أن لا يحرج المضيف ولا يشق عليه إن كان معسرا أو عاجزا أو لديه ظروف صعبة تمنعه من القيام بالضيافة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(الضيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه قالوا يا رسول الله وكيف يؤثمه قال يقيم عنده ولا شيء له يقريه به). رواه مسلم.

والكرم والجود من أشرف أخلاق العرب التي أقرها الإسلام ورتب الثواب عليها. وفيه أن حفظ اللسان وصونه عن رديء الكلام من خصال الإيمان. وقد ورد أن الإنسان يحاسب على ما يتلفظ به كما قال تعالى: (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ).

وورد في السنة خطورة عاقبة الكلام السيئ جزافا من غير تحفظ. والمؤمن مخير بين السكوت والكلام بالخير وقد دلت النصوص على أن التكلم بالخير أفضل من السكوت عن الكلام مطلقا ولم يرد في الشرع ما يدل على أن الصمت عبادة يتقرب بها إلى الله وإنما هو وسيلة لحفظ اللسان عن السيئات فالتعبد بالصمت عمل محدث لا أصل له. فينبغي على المؤمن أن يراعي الأحوال في الخطاب فإن كان في الكلام مصلحة راجحة من الذكر والسلام والنصيحة والإرشاد والتعليم وغيره تكلم به وإن كان في السكوت مصلحة راجحة خشية الوقوع في الكذب والغيبة والنميمة واللمز

والخداع والفسوق وغيره سكت ولم يتكلم حينئذ. ولا ينبغي للمؤمن أن يكثر من فضول الكلام لأن ذلك يقسي قلبه ويضيع وقته ويكون سببا في وقوعه في الإثم وإنما يتكلم بالكلام المباح عند الحاجة لذلك في مصلحته الخاصة والمصلحة العامة مما يتعلق بحق الغير. وحفظ المؤمن للسانه دليل على كمال إيمانه ورجاحة عقله وورعه وقوة عزيمته. وكثير من الناس يهلك في شهوة لسانه وفتنة القول ولذلك ورد في السنة الضمان بالجنة لمن حفظ لسانه.

(١٦) تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه

١–حديثُ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو أَبِي مَسْعودٍ قَالَ: أَشارَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِيَدِهِ نَحْوَ الْيَمَنِ فَقالَ: (الإِيمانُ يمانٍ ههنا، أَلا إِنَّ الْقَسْوَةَ وَغِلَظَ الْقُلُوبِ في الْفَدَّادِينَ عِنْدَ أُصولِ أَذْنابِ الإِبْلِ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنا الشَّيْطانِ في رَبيعَةَ وَمُضَرَ). متفق عليه.

٢– حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (أَتاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، أَضْعَف قُلوبًا، وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً، الْفِقْهُ يمانٍ وَالْحِكْمَةُ يمانِيَةٌ). متفق عليه.

٣– حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (رَأْسُ الْكُفْرِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ، وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلاءُ في أَهْلِ الْخَيْلِ وَالإِبِلِ وَالْفَدَّادينَ أَهْلِ الْوَبَرِ، وَالسَّكينَةُ في أَهْلِ الْغَنَمِ). متفق عليه.

٤– حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (الْفَخْرُ وَالْخُيَلاءُ في الْفَدَّادينَ أَهْلِ الْوَبَرِ، وَالسَّكينَةُ في أَهْلِ الْغَنَمِ، وَالإِيمانُ يمانٍ، وَالْحِكْمَةُ يمانِيَةٌ). متفق عليه.

الشرح:

فيه أن المؤمنين يتفاضلون ويتفاوتون في درجة الإيمان فهم ليسوا على منزلة واحدة

منهم الظالم لنفسه ومنهم المقتصد ومنهم السابق بالخيرات. ومذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالعصيان. وقد تظافرت النصوص على ذلك فمن كمل علمه وكثر عمله زاد إيمانه ولذلك كان الصحابة على مراتب في الفضل والإيمان بحسب نصرتهم للدين وتصديقهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وجهادهم وإنفاقهم. والمؤمن أيضا في نفسه يتفاوت إيمانه على حسب نشاطه في الطاعة وإقباله على الله ووقوعه في الغفلة. وفيه بيان فضيلة أهل اليمن وعلو منزلتهم في الإيمان وذلك لرقة قلوبهم وخشوعهم وقوة استجابتهم للحق ونصحهم وإيثارهم الله والدار الآخرة على الدنيا ومسارعتهم في الخيرات وقد عنى النبي صلى الله عليه وسلم الأشعريين في خطابه وكانت أحوالهم رضي الله عنهم عجيبة في التصديق والنسك والإيثار. والذي يظهر أن هذه الفضيلة ليست عامة في سائر أهل اليمن في كل زمان بإطلاق وإنما هي لمن آمن وصدق منهم الرسول صلى الله عليه وسلم في عهده ويلحق بهم من أتى بعدهم ممن التزم شرع الله واتبع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم واقتدى بهدي أصحابه أما من تلبس بشرك أو بدعة أو فجور وفسق فلا يدخل في هذا الفضل وهذا الصنف كثير كما أن بعض قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم ممن أشرك في عبادة الله وابتدع في الدين لا يتناوله الفضل والسابقة على غيره. وفيه ذم أرض المشرق وقد سماها النبي صلى الله عليه وسلم بنجد والمراد بذلك أرض العراق لأنه يصدق عليها تسميتها بنجد وهو ما ارتفع من الأرض وكان مستويا مما دون الحجاز من جهة العراق ولأنه يصدق عليه جهة المشرق لوقوع العراق مشرق المدينة كما أشار النبي صلى الله عليه وسلم إليه ولأن عبد الله بن عمر فسر أرض المشرق بالعراق وقد نص على ذلك جماعة من المحققين قال الخطابي: (نجد من جهة المشرق ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها وهي مشرق أهل المدينة). ولم يرد في السنة شيء يدل على فضائل نجد اليمامة أو ذمها يمكن حمل هذه النصوص عليها. وقد ورد في ذمها أحاديث كثيرة منها الصحيح ومنها الضعيف والمقصود أن الكفر يكثر فيها وتظهر فيها الزلازل والفتن أكثر من غيرها وقد وقع ذلك كثيرا على مر الأزمان وهو من علامات النبوة والمتأمل فيها يجد أنه ما من بدعة أو فتنة إلا نشأت فيها ومع ذلك

فقد حصل فيها خير كثير من الإيمان والعلم والجهاد ولا يذم الرجل ولا يمدح لانتسابه لأرض وإنما الميزان اعتقاد الرجل وعمله قال ابن تيمية: (فلا ينبغي للرجل أن يلتفت إلى فضل البقعة في فضل أهلها مطلقا بل يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه ولكن العبرة بفضل الإنسان في إيمانه وعمله الصالح والكلم الطيب). وقد فسر المبتدعة ودعاة الشرك المراد بهذه النصوص أرض اليمامة وما حولها قاصدين بذلك ذم دعوة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمي وقولهم باطل مخالف لدلالة النصوص ولا يعرف عن السلف. وفيه ذم أصحاب الإبل الملازمين لها ووصفهم بقسوة القلوب والغلظة والكبر والخيلاء وذلك لتأثرهم بطبيعة الإبل وسلوكها فالإبل خلقت من الجان والشيطنة من طبيعتها ولذلك أمر الشارع بالوضوء من أكل لحمها ونهى عن الصلاة في مباركها وكل من لازم شيئا تأثر به وتطبع بطبعه ولا يعني ذلك تحريم تملكها والانتفاع بها فقد أجمع العلماء على إباحة تملكها والانتفاع بها ودل الشرع على فائدة أبوالها وألبانها فينبغي على أهل الإبل أن يرققوا قلوبهم بذكر الله ويهذبوا طباعهم ويكثروا من التذلل والتواضع لعباد الله ويتعاطوا الرحمة. وفيه مدح أصحاب الغنم الملازمين لها ووصفهم بأوصاف حسنة مغايرة لأهل الإبل من السكينة والتواضع فالغنم من طبيعتها الهدوء والسكينة فمن لازم رعيها وتربيتها أورثه ذلك السكينة والتواضع وانكسار القلب واتساع الأفق والحكمة في إدارة الأمور وسعة الصبر وطول النفس وغير ذلك من الفوائد. ولذلك باشر هذه المهنة رسولنا صلى الله عليه وسلم وجميع الأنبياء كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم فقال أصحابه وأنت فقال نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة). رواه البخاري.

(١٧) بيان أن الدين النصيحة

١-حديث جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ (بايَعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَلَقَّنَنِي فِيما اسْتَطَعْتُ، وَالنُّصْحِ لِكلِّ مُسْلِمٍ). متفق عليه.

الشرح:

فيه وجوب النصيحة في دين الله على كل مسلم. فينبغي للمسلم أن ينصح لله بإخلاص العبادة له والإحسان في طاعته وأن ينصح للرسول صلى الله عليه وسلم بمحبته ونصرته وتوقيره وإتباع هديه وأن ينصح لكتاب الله بحفظه وتلاوته ومدارسته والعمل بحدوده وصيانته وحمايته من التحريف فيه بالزيادة والنقصان أو تأويل معانيه أو تفسيره بالرأي المذموم. وأن ينصح لإمامه بالسمع والطاعة له بالمعروف وأن ينصح لعامة المسلمين بإسداء النصح لهم في دينهم ودنياهم وبذل المعروف لهم وكف الأذى عنهم. ومن أعظم النصيحة في دين الله أن يقوم المسلم بحقوق ولي أمره الشرعي ويفي بعهده إذا تمت البيعة الشرعية سواء بايعه بنفسه أو بايعه من ينوب عن المسلمين من أهل الحل والعقد ممن يرضى دينه وأمانته قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ). ولا يستقيم للمسلمين أمر الدين والدنيا إلا بطاعة الإمام والانقياد له. فإذا ثبتت بيعة الإمام أو غلب بسيفه على المسلمين لزم المسلم طاعته بالمعروف في المنشط والمكره والسمع له وتعظيم حرمته والقيام بأمره ونهيه بالمعروف مما يتحقق فيه مصلحة المسلمين العامة من غير طاعة في المعصية ومناصحته والحرص على هدايته والدعاء له بالتوفيق والسداد وحرم على المسلم الافتيات على وظائفه وتحريض الرعية عليه والخروج عن طاعته والاستخفاف بحقه ومنزلته وإن جار وظلم وأكل أموال الناس واستأثر بدنياهم ومنعهم حقوقهم ما دام حكمه باقيا على الإسلام مظهرا لشعائر الدين وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة السائرين على منهج السلف الصالح خلافا للخوارج الذين يشترطون العدالة في طاعة الإمام ويبيحون بل يوجبون الخروج على إمام الجور والفسق أبطل الله سعيهم وكفى المسلمين شرورهم وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر عند جور الإمام ونهى عن الخروج عليه كما في الصحيحين: (من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة

شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية). والمؤمن لا يغل قلبه ولا يحمل الحقد والغش إذا كان مخلصا لله منصحا لأئمة المسلمين ملازما لجماعتهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ثلاث لا يغل عليهن إخلاص العمل لله ومناصحة أئمة المسلمين وملازمة جماعتهم). رواه الترمذي. فمن اتصف قلبه بهذه الخصال كان سليما قائما بالنصيحة فهنيئا لمن وفق بالقيام بهذه العبادة الجليلة. وطاعة الأئمة شعار لأهل السنة والخروج على الأئمة شعار لأهل البدعة قال ابن تيمية: (أهل البدع من الخوارج والشيعة والمعتزلة وغيرهم يرون قتال أئمة الجور والخروج عليهم إذا فعلوا ما هو ظلم أو ما ظنوه هم ظلماً ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

(١٨) بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله

١ –حديثُ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) وزَادَ فِي رِوايَةٍ (وَلا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَبْصارَهُمْ فِيها حِينَ يَنْتَهِبُها وَهُوَ مُؤْمِن). متفق عليه.

الشرح:

فيه أن الإيمان يطرأ عليه النقص إذا ارتكب العبد الذنوب والمعاصي لا سيما الكبائر وقد دل على هذا الأصل نصوص كثيرة قال تعالى في زيادة الإيمان: (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ). وكل أمر دخل عليه الزيادة قبل النقصان وهو قول عامة أهل السنة. وقد بيَّن أحمد بن حنبل كيفية زيادة الإيمان ونقصانه فقال: (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص إذا عملت الخير زاد وإذا ضيعت نقص). فالإكثار من عمل القلب بالتفكر وعمل اللسان بالذكر وعمل الجوارح

بالنوافل يكون سبباً مباشراً في زيادة الإيمان والتقصير والغفلة عن ذلك ينقص الإيمان والإيمان يتفاوت كثيراً بحسب اختلاف الأشخاص والأحوال. وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم خص هذه الذنوب الأربعة بالذكر شرب الخمر والزنا والسرقة والنهبة لكونها من الكبائر التي يذم فاعلها وتوجب له دخول النار وقد ورد وعيد شديد لمن فعل هذه الكبائر. وفيه أن ارتكاب هذه الكبائر ينافي كمال الإيمان الواجب وينقصه ولا يزيل أصله فالنفي الوارد في هذا النص محمول على كماله الواجب وليس على أصله باتفاق أهل السنة وإجماع الصحابة قال ابن تيمية: (ومن أتى الكبائر مثل الزنا أو السرقة أو شرب الخمر وغير ذلك فلابد أن يذهب ما في قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور وإن بقي أصل التصديق في قلبه وهذا من الإيمان الذي ينزع منه عند فعل الكبيرة). ففاعل الكبيرة باق على أصل الإيمان وإن كان فاسقا مذموما بلسان الشرع متوعدا بالعذاب في الآخرة خلافا للوعيدية من الخوارج والمعتزلة فالخوارج يقولون أن مرتكب الكبيرة كافر في الدنيا والآخرة والمعتزلة يقولون أنه في الدنيا بين منزلة الإيمان والكفر قال ابن تيمية في حكم المرتكب للكبيرة عند أهل السنة: (ولا يسلبون الفاسق الملي اسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونه في النار كما تقوله المعتزلة بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان في مثل قوله تعالى: (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ). وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا)).

(١٩) بيان خصال المنافق

١-حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ

كَانَ مُنافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفاقِ حَتّى يَدَعَهَا: إذا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذا عاهَدَ غَدَرَ، وَإذا خاصَمَ فَجَرَ). متفق عليه

٢- حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (آيَةُ الْمُنافِقِ ثَلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإذا اؤْتُمِنَ خَانَ). متفق عليه.

الشرح:

ذكر النبي صلى الله عليه وسلم خمسا من خصال المنافق وصفاته التي لا يطبع عليها ولا يداوم إلا من كان في قلبه نفاق والغالب أن هذه الخصال إذا اجتمعت في شخص كانت دليلا وأمارة على نفاقه أو حمله ذلك على النفاق الخالص ومن كان فيه خصلة منها كان متصفا بخلق من أخلاق المنافقين. فالمنافق لما فسد إيمانه وضعفت بصيرته واستخف بوعد الله ووعيده استهان بعهد الله فتساهل في أداء الفرائض واستهان في عهود الخلق وحقوقهم فخان في الأمانة وكذب في الحديث وغدر في العهد وفجر في الخصومة وأخلف في الوعد وكل ذلك وقع منه لما آثر الدنيا وركن إليها وزهد فيما عند الله من النعيم واستبعد وقوع عذاب الله وعقوبته فهو آمن من مكر الله ولذلك ورد في الصحيح أن الركون إلى الدنيا ومحبتها وترك العزم على الجهاد شعبة من شعب النفاق. فالمنافق جريء على حرمات الله متهاون في ارتكاب المعاصي لا يخطر على باله أبدا عظم العقوبة في الآخرة وهول الموقف وشدة الحساب والمؤمن الحق لا يأمن مكر الله ويخاف ذنبه وإن استزله الشيطان في بعض الأحوال فهو مشفق على نفسه وجل من عذاب الله مسارع إلى التوبة والندم على تفريطه وقد كان السلف الصالح يخافون النفاق على أنفسهم في حصول الزلل وإن صغر الذنب فلا يحقرون ذنبا ولا يصرون على صغيرة ولا يجاهرون بكبيرة تعظيما لله وخشية من العقوبة وخوفا من سوء الخاتمة.

والنفاق الوارد في نصوص الشرع نوعان:

الأول: نفاق أكبر يتعلق بالاعتقاد وهو أن يظهر الإنسان الإسلام ويبطن الكفر وصاحبه كافر إن مات عليه مخلد في النار كما قال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ

الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا).

الثاني: نفاق أصغر يتعلق بالعمل وهو أن يتخلق الإنسان بشيء من أخلاق المنافقين وصفاتهم مع صدق الإيمان في قلبه كالكذب والغدر والخيانة والفجور والخلف والتكاسل عن الفرائض وتضييعها ونحوه مما ذكرها الرسول صلى الله عليه وسلم تحذيرا من الوقوع فيها. والمقصود في هذه النصوص من داوم على هذه الخصال وصارت طبعا وعادة له أما من ألم بشيء منها ولم تكن غالبة في سلوكه فلا يدخل في هذا الذم وإن كان قد ارتكب ذنبا ويجب عليه التوبة من هذا الذنب. فيجب على المسلم أن يبتعد عن هذه الخصال ويحذر من الوقوع فيها ولا يتساهل فيها ويكون صادقا في حديثه ووعده وعهده وأمانته وخصومته وإذا خاصم أحدا على شيء من الدنيا وجب عليه أن يكون صادقا في دعواه فلا يدعي ما ليس له ولا يقتطع مال امرئ مسلم ولا يحلف أو يشهد على زور ولا يذكر عيبا أو ذنبا لخصمه لا علاقة له بدعواه ولا يتتبع عورته ويفضحه على رؤوس الخلائق. وقد كثرت أخلاق النفاق في هذا الزمان والله المستعان.

ومن أخطر وأشهر أخلاق المنافقين الذين كانوا في عهد النبوة الطعن في الله ورسوله صلى الله عليه وسلم واللمز في أحكام الشريعة والاستهزاء بعباد الله الصالحين وموالاة أعداء الله والثناء عليهم وارتضاء منهجهم واتباع الشبهات ومحبة إشاعة الفواحش والإعراض عن التحاكم لشرع الله والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وكراهة شيئ من الدين وغير ذلك مما فيه سوء الظن بالله وانتقاص لدين الله ومحبة لزواله وإقصائه ورغبة في غلبة الباطل وأهله على أهل الحق وكل من تخلق بهذه الأخلاق وسلك سبيل المنافقين فهو داخل في الوعيد ومذموم شرعا وحكمه حكمهم والعياذ بالله. والمنافقون يزعمون أنهم يصلحون المجتمع وهم مفسدون قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ).

والمنافقون هم أعظم سبب لتمكن الكفار على بلاد المسلمين والقضاء على قوتهم وتفريق كلمتهم قال تعالى: (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً.الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً).

(٢٠) بيان حال إيمان من قال لأَخيه المسلم يا كافر

١-حديثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (أَيُّما رَجُلٍ قالَ لأخيهِ يا كافِرُ فَقَدْ باءَ بِها أَحَدَهُما). متفق عليه.

الشرح:

فيه الزجر والنهي عن تكفير المسلم الذي ثبت إسلامه بيقين فمن نطق بالشهادتين أو التزم بشعائر الإسلام حرم إطلاق الكفر عليه أو إخراجه من الدين بلفظ من الألفاظ مهما فعل من الكبائر واجترح من السيئات لأن إسلامه ثبت بيقين فلا يزول بالشك وغلبة الظن ولأن الأصل في دين المسلم السلامة فلا ينقض هذا الأصل بتأويل واجتهاد خاطئ. ومن كفر مسلما معصوما بلا حق فقد أتى جرما عظيما وعرض نفسه للهلاك. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (فقد باء بها أحدهما) يعني أن كلمة الكفر التي أطلقها إن كان الموصوف بها مستحقا لها ثبتت له وإن لم يكن مستحقا لها باء بإثم رميه لأخيه بالكفر ورجع وزر ذلك عليه إن كان كاذبا وهذا يدل على خطورة الأمر وقد حمل أهل السنة هذا اللفظ على سبيل الوعيد والتخويف وقالوا لا يقتضي هذا الذنب تكفير المتكلم وزوال الإيمان عنه إلا أن يكفر من أثنى الله عليه بعينه وزكاه بالإيمان فيكون مكذبا لله فيكفر بذلك. وهذا الحديث وشبهه في النهي عن تكفير المسلمين بغير حق أما من وقع في شيء من أسباب الردة وأتى بما يناقض الدين من أنواع الردة المتفق عليها بين أهل السنة وأقيمت عليه الحجة وانتفت عنه الشبهة فإنه يكفر بذلك لكونه مستحقا لهذا الوصف الشرعي وهذا مقتضى العدل معه وإنما يتولى تكفيره من كان من أهل العلم الراسخين في الكتاب والسنة العارفين بدلالات الألفاظ وأحوال المتكلمين. وضل في باب التكفير طائفتان:

الأولى: طائفة غلت في التكفير وأسرفت فيه وتجاوزت الحد الشرعي فكفرت المسلمين

بالكبائر والأفعال والأقوال المحتملة والمسائل المختلف فيها فيطلقون الكفر على كل ما لم يوصف في الشرع بالكفر الأكبر وكل ما لم يعتبر ناقضا في دلالة الشارع المتفق عليها وهؤلاء هم الخوارج ومن سلك طريقتهم من الغلاة قال ابن تيمية: (وإذا عرف أصل البدع فأصل قول الخوارج أنهم يكفرون بالذنب ويعتقدون ذنباً ما ليس بذنب ويرون اتباع الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر الكتاب وإن كانت متواترة ويكفرون من خالفهم ويستحلون منه لارتداده عندهم ما لا يستحلونه من الكافر الأصلي كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهم: يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان).

الثانية: طائفة فرطت في التكفير وقصرت فيه ومنعته بالكلية فأثبتت الإيمان لجميع المنتسبين للإسلام وإن ارتكبوا أنواع الردة والنواقض الصريحة وقصروا الكفر على جهل القلب أو جحوده وهؤلاء هم الجهمية والمرجئة ومن تأثر بهم.

وتوسط أهل السنة والجماعة في هذا الباب بين الغلاة والمفرطة فعظموا حرمة المسلمين وعصموا دمائهم وأموالهم ولم يكفروا أحدا بذنب فعله مالم يستحله أو يرتد عن دينه بعد ثبوت الأسباب وانتفاء الموانع وهذا هو مذهب الصحابة فمن بعدهم ممن اهتدى بهديهم واستن بسنتهم من السلف الصالح. فالواجب على المسلم أن يكون حافظا للسانه ملتزما الأدب الشرعي متحرزا من تكفير وتبديع المسلمين بغير حق ورعا في إطلاق الأحكام على أهل الإيمان معظما لشعائر الله. وينبغي على الشيخ أن يجنب تلاميذه من الخوض في مسائل التكفير ويعظم في نفوسهم حرمة المسلم حتى لا يتجرأوا ويفتحوا على أنفسهم باب شر ويستسهلوا الكلام في هذه المسائل الكبار قبل رسوخهم في العلم.

(٢١) بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم

١-حديث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (لَيْسَ مِنْ

رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ كَفَرَ، وَمَنِ ادَّعى قَوْمًا لَيْسَ لَهُ فِيهِمْ نَسَبٌ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ). متفق عليه.

٢- حديثُ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (لا تَرْغَبُوا عَنْ آبائِكِمْ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبيهِ فَهُوَ كُفْرٌ). متفق عليه.

٣- حديثُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَأَبِي بَكْرَةَ قَالَ سَعْدٌ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (مَنِ ادَّعى إِلى غَيْرِ أَبيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبيهِ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرامٌ فَذُكِرَ لأَبِي بَكْرَةَ فَقَالَ: وَأَنا سَمِعَتْهُ أُذُنايَ وَوَعاهُ قَلْبِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم). متفق عليه.

الشرح:

فيه تحريم انتساب الإنسان إلى غير أبيه وأن هذا العمل من الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة لأن الإنسان إذا انتسب إلى غير أبيه كان كافرا بنعمة الأبوة وحق أبيه الذي كان سببا في وجوده في الحياة. وفيه تحريم الانتساب أيضا إلى قوم ليسوا أهلا له ولا يثبت فيهم نسب له. وقد رتب النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الفعل دخول النار فدل على أنه من الكبائر المنهي عنها. وقوله صلى الله عليه وسلم: (فالجنة عليه حرام) من نصوص الوعيد المطلقة التي يقيدها أهل السنة بالنصوص الأخرى المحفوظة في السنة الدالة على عدم تخليد الموحدين في النار والمقصود أن هذا العمل يحرم على فاعله دخول الجنة ابتداء وأمره إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه أو كفرت خطاياه بالمكفرات الواردة في الأدلة الشرعية لكنه لا يخلد في النار تخليد الكفار وهذه قاعدة أهل السنة في عصاة الموحدين من أهل الكبائر قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ). وثبت في السنة واستفاض خروج العصاة من النار بعد تطهيرهم وثبتت الشفاعة لهم في عدم دخول النار وإخراجهم منها بعد دخولها وغير ذلك من الشواهد الدالة على هذا الأصل العظيم من عدم تخليد العصاة في النار وكل ما ورد في النصوص من الوعيد بالنار أو دخولها أو تحريم الجنة على العصاة فمحمول على استحقاق العذاب واستيفائه من غير خلود في النار كالكفار. وتحريم الانتساب إلى غير الأب أو إلى غير القوم في هذه الأحاديث محمول على العلم

والقصد وتعمد ذلك أما إذا جهل الإنسان نسب أبيه وقومه واجتهد وبذل وسعه في معرفته ثم غلب على ظنه القول بنسب معين بقرائن وأمارات فلا يشمله النهي ولا يدخل في الوعيد ولو كان مخطئا وإن كان الورع تركه ولهذا كان من المقرر عند أهل العلم ثبوت النسب بالاستفاضة والشهرة ولو لم يحصل اليقين بذلك. وإذا قصد الإنسان بالانتساب إلى غير أبيه وقومه تحصيل دنيا أو جاه أو رئاسة كان التحريم أعظم وأشد وما تحصل عليه بسب ذلك سحت. ويلحق في هذا الحكم من نفى نسب أبيه وقومه بلا حق ولو لم ينتسب إلى غيرهم. وقد اعتنى الشارع بمسألة الأنساب وحفظها واحترامها لما يترتب عليه من الأحكام في كثير من أبواب الشرع كالنفقة والميراث والدية والزكاة والمحرمية في النكاح والقصاص والولاية في النكاح والمال وغير ذلك. فالواجب على المسلم أن يعتني بنسبه إلى أبيه وقومه ويضبطه ولا يتساهل في إنكاره أو تغييره لأجل دنيا أو الحصول على الجنسية أو مستحق مالي أو خصومة ومن كذب في نسبه فقد ارتكب إثما عظيما ووجب عليه التوبة والتبرؤ من ذلك وإثبات نسبه الصحيح.

(٢٢) بيان قول النبيّ صلى الله عليه وسلم سباب المسلم فسوق وقتاله كُفر

١ –حديثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ أَنَّ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتالُهُ كُفْرٌ). متفق عليه.

الشرح:

بين النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث خصلتين محرمتين في التعامل مع المسلمين: الخصلة الأولى: سب المسلم وشتمه بأي لفظ سيء سواء كان باللعن والتقبيح أو تشبيهه بالبهائم أو تعييره بعيب أو خلق أو غير ذلك من الألفاظ التي

تؤذيه وتدخل الحزن عليه فيحرم على المسلم السب والشتم لأجل الدنيا أو الدين إلا في حالة واحدة يجوز للمسلم شتم غيره إذا بدأه شخص بذلك وكان على سبيل القصاص والمماثلة من غير ظلم وكذب قال تعالى: (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ). وفي صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المستبان ما قالا فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم). مع أن الأفضل له العفو والصفح لله وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عف اللسان لا يسب ولا يشتم ولا يقبح أحدا ولا ينتقم لنفسه فلم يكن فاحشا ولا متفحشا بالقول حتى مع خصومه من اليهود وغيرهم وكان رفيقا في خطابه لهم. فينبغي للمؤمن أن يكون لسانه طيبا عفيفا يصدر عنه أحسن الكلام وأعذب الكلمات وأن يتجنب الفحش مع الخلق عامتهم وخاصتهم من أهل وولد وصاحب.

الخصلة الثانية: التي نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم قتل المسلم والعياذ بالله وهذا الفعل من أكبر الكبائر وقد قرنه الله بالشرك لعظمه وقد ورد فيه وعيد شديد. قال تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا). وقد وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بالكفر والمراد الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة باتفاق أهل السنة لأن الله عز وجل أثبت أخوة الإيمان للمؤمنين حال اقتتالهم ونزاعهم فقال تعالى: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ). والمسلم له حرمة عظيمة في نفسه أعظم من حرمة البيت العتيق فيحرم انتهاكها إلا بحق. وأهل الإيمان أعف الناس في باب الدماء لا يسفكون دما ولا يخفرون ذمة ولا ينقضون عهدا خلافا للمنافقين والخوارج والفجار الذين يستخفون بدماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم. والحاصل أن هذا الحديث أرشد المؤمن إلى عفتين عفة اللسان وعفة اليد وهما من أجل وأجمل خصال المؤمن.

(٢٣) لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض

١-حديثُ جَرِيرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ لَهُ فِي حَجَّةِ الْوَداعِ: (اسْتَنْصِتِ النَّاسَ، فَقالَ: لا تَرْجِعُوا بَعْدي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ). متفق عليه.
٢- حديثُ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (وَيْلَكُمْ أَوْ وَيْحَكُمْ، لا تَرْجِعُوا بَعْدي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ). متفق عليه.

الشرح:

فيه تحذير النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين من القتال فيما بينهم والنزاع والفرقة لأجل الدنيا وزينتها أو طلب الرئاسة أو الفتنة وقد وقع ما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته في زمن مبكر صدر الإسلام. والمقصود في هذا النص وشبهه التحذير من القتال بغير حق أما القتال الشرعي بحق بإذن الإمام الذي له سبب ومقتضى شرعي من قتال الخوارج والبغاة ودعاة البدعة والممتنعين من إظهار الشعائر الخارجين عن الجماعة فهذا فعل مأذون فيه شرعا مرغب فيه ولا يدخل في القتال المذموم المنهي عنه بالنص والإجماع. وكذلك إذا قاتل المرء أخاه المسلم دفاعا عن نفسه أو أهله أو ماله كان فعله مباحا ولم يؤاخذ على ذلك ولو لم يندفع إلا بالقتل لأن غرضه في ذلك دفع الأذى عن نفسه وحرمته وقد رخص الشرع في ذلك ولو مات بسبب ذلك كان شهيدا أما إذا قاتله لأجل دنيا أو عداوة شخصية أو أخذ بثأر حرم عليه ذلك واستوجب دخول النار ولو كان مقتولا كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك. وقد ورد في صحيح مسلم أن الشيطان يلقي بين المسلمين العداوة والبغضاء فيوقع بينهم الفرقة والخلاف فيحملهم ذلك على قتال بعضهم لبعض وسفك الدماء والتاريخ حافل بوقائع الفتنة ومشاهد الفرقة بين أهل الإسلام عند غلبة الهوى وحب الأثرة وفشو الجهل مما يندى لها الجبين ويحزن لها القلب وأعظم سبب لوقوع الفتنة

والاقتتال هو التنافس على الدنيا كما في الصحيحين: (إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها فتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم). والشريعة جاءت بسد كل طريق يفضي إلى النزاع والفرقة وضبطت أحوال المسلمين السياسية والاجتماعية ووضعت لهم ضوابط لحقن دمائهم وحفظ اجتماعهم واتحاد كلمتهم فيجب على المسلم تعظيم هذا الأمر وعدم المشاركة مطلقا في أي قتال إلا إذا استفتى الراسخين من أهل العلم وصدر عن رأيهم وامتثل طاعة ولي الأمر الشرعي وظهر له وجه الحق وبان له أما إذا اشتبه عليه الأمر وحصل له نوع تردد وكثر اختلاف الناس فيه فهذا قتال فتنة وشبهة فليمسك عنه وليعصم دينه من الدماء وليغلق عليه بابه ويكل أمره إلى الله كما تورع السلف الصالح عن الخوض في قتال الفتنة قال بشير بن عقبة قلت ليزيد بن عبد الله بن الشخير: (ما كان مطرف يصنع إذا هاج في الناس هيج قال: يلزم قعر بيته ولا يقرب لهم جمعة ولا جماعة حتى تنجلي). وقد أمسك فقهاء الصحابة عن الخوض في قتال الفتنة ولزموا بيوتهم وقد ورد في السنة أن من أشراط الساعة كثرة القتل كما في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل القتل حتى يكثر فيكم المال فيفيض).

وهذا يدل على استخفاف الناس بالدماء وكثير من القتال في هذا الزمان قتال فتنة ينهى عنه الراسخون في العلم وقد أدى إلى مفاسد عظيمة من استباحة الدماء وإتلاف الأموال وذهاب الأمن واختلاف كلمة المسلمين وظهور النعرات وكانت النتائج وخيمة وأما من يحرض على القتال ويتساهل في هذا الأمر العظيم ويحث الأتباع على المشاركة في الثورات فهذا لم يفقه حقيقة ما جاء به الشرع في تعظيم حرمة الدماء ولم يتبع سنة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسلك مسلك أئمة السلف في هذا الباب ومن تأمل الثورات في هذا الزمان أيقن أن مفاسدها أكثر بكثير من مصالحها وازداد تسلط الكفار وفتحت على المسلمين شرور عظيمة ولذلك قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: (سلطان غشوم ظلوم خير من فتنة تدوم).

(٢٤) بيان كفر من قال مطرنا بالنوء

١-حديث زَيْدِ بْنِ خالِدٍ الْجُهَنِيِّ قالَ: صَلّى لَنا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم صَلاةَ الصُّبْحِ بالحُدَيْبِيَةِ عَلى إِثْرِ سَماءٍ كانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمّا انْصرَفَ أَقْبَلَ عَلى النّاسِ فَقالَ: (هَلْ تَدْرُونَ ماذا قالَ رَبُّكُمْ قالوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبادي مُؤْمِنٌ بِيَ وَكافِرٌ، فَأَمّا مَنْ قالَ مُطِرْنا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمّا مَنْ قالَ مُطِرْنا بِنَوْءِ كَذا وَكَذا فَذَلِكَ كافِرٌ بِيَ وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ). متفق عليه.

الشرح:

فيه أن الله سبحانه وتعالى قسم الناس عند نزول الغيث إلى صنفين مؤمن وكافر:

الصنف الأول: من الناس من نسب نزول المطر إلى الله واعترف بنعمته عليه وشكر المنعم على إسدائه وإنعامه وأقر بفقره وحاجته إلى الله فهذا مؤمن لأنه حقق توحيد الربوبية وآمن بقدرة الله وفعله وكفر وجحد بكل ما سوى الله من النجوم والكواكب واعتقد أنها لا تنفع ولا تضر لأنها مخلوقة لله مدبرة يصرفها الله كيف يشاء. قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ).

الصنف الثاني: من الناس نسب نزول المطر إلى تأثير نجم أو كوكب أو جرم فلكي واعتقد أن ذلك حصل بسبب حركتها أو دورانها أو تغير أحوالها وتناسى قدرة الله وفعله في نزول المطر فهذا مؤمن بتأثير الكوكب كافر بفعل الله وقدرته.

واعتقاد تأثير النجوم في نزول المطر وغيره حالتان:

الأولى: أن يعتقد الإنسان أن النجوم مستقلة في إيجاد المطر تخلقه وتوجده وتصرفه فهذا كفر أكبر لأن حقيقته إيجاد شريك مع الله في أفعاله من خلق وتدبير وهذا شرك

في الربوبية.

الثانية: أن يعتقد الإنسان أن الخالق هو الله لكن لهذه النجوم تأثير في نزول المطر لكونها أسباب مؤثرة في حصول ذلك وليست مستقلة في الإيجاد والخلق فهذا كفر أصغر لأن حقيقته شرك في الأسباب واعتقاد التأثير والنفع في سبب لم يجعله الله نافعا مؤثرا.

وهذا الحديث وإن ورد في نزول المطر على سبيل الخصوص فهو عام في كل حدوث نعمة وخلق الناس فيه صنفان مؤمن وكافر. ولا بأس في النظر في الأحوال الفلكية والاستدلال والتنبؤ بها على نزول المطر لأن ذلك من باب الاستدلال والاهتداء بأمارات خلقها الله لحكمة ولا ينافي ذلك الإيمان بقدرة الله وأفعاله وتفرده بالخلق قال تعالى: (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ). إنما المذموم شرعا اعتقاد سببية الكواكب وتأثيرها في نزول المطر أو حدوث أمر ولذلك رخص أهل العلم في قول الإنسان (مطرنا في نوء كذا) على سبيل الظرفية والإخبار.

(٢٥) الدليل على أن حب الأَنصار من الإيمان

١–حديث أَنَسٍ عَنِ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (آيَةُ الإِيمانِ حُبُّ الأَنْصارِ، وَآيَةُ النِّفاقِ بُغْضُ الأَنْصارِ). متفق عليه.

٢– حديث الْبَراءِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (الأَنْصارُ لا يُحِبُّهُمْ إِلاَّ مُؤْمِنٌ، وَلا يُبْغِضُهُمْ إِلاّ مُنافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ). متفق عليه.

الشرح:

فيه أن حب المؤمن لقبيلة الأنصار شعبة من شعب الإيمان وعلامة عليه فلا يحبهم إلا

مؤمن. وفيه أن بغضهم وكرههم شعبة من شعب النفاق والكفر فلا يبغضهم إلا منافق. والأنصار هم من سكن المدينة من الأوس والخزرج وهما قبيلتان من غسان من الأزد وسموا بالأنصار لأنهم آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم ونصروه وعزروه وآووه بعد هجرته إليهم واستقراره فيهم. وقد ورد في فضلهم شمائل عظيمة ومناقب جمة كما قال تعالى في مدحهم: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ). وأثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في مناسبات حافلة وفاضل بين دورهم وأحيائهم وأوصى باحترام حقوقهم وحفظ منزلتهم ومراعاتهم والتجاوز عن زلاتهم بعد موته وقد أخبر أن الناس يكثرون وهم يقلون مع مرور الزمان. وانتسب إليهم خلق كثير من المتأخرين ليسوا منهم خاصة في بلاد الأعاجم. وإنما أمر الله بمحبتهم وموالاتهم لما قاموا به من الإيمان والجهاد والنصرة والتضحية بأغلى ما يملكون في سبيل هذا الدين فاستحقوا هذه المنزلة العظيمة والمرتبة المنيفة في أهل الإيمان. وفيه أن محبتهم من مقتضى محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فمن كمال محبة الله الواجبة أن يحب المرء كل ما أحبه الله من الأزمنة والأمكنة والأشياء والأعيان من النبيين والصديقين والصالحين ومن أعلاهم الأنصار. وفيه أن من أبغضهم أو كفرهم أو طعن في دينهم وعاداهم وترك موالاتهم فهو منافق مكذب لله ورسوله صلى الله عليه وسلم طاعن في الشريعة التي بلغوها عنه وهذه البدعة السيئة شائعة لدى بعض الفرق الضالة كالرافضة وغيرهم قال أحمد بن حنبل عن الرافضة: (هم الذين يتبرأون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ويسبونهم وينتقصونهم ويكفرون الأئمة إلا أربعة علي وعمار والمقداد وسلمان وليست الرافضة من الإسلام في شيء). والمقصود بالمدح والثناء من الأنصار من كان مؤمنا بالله مواليا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ناصرا لدينه من الصحابة ومن تبعهم بإحسان أما من كان كافرا لم يؤمن بالرسول أو منافقا ومات على ذلك فليس داخلا في جماعة الأنصار الممدوحين ولا يلحقه فضل وإن كان ذو نسب فيهم كعبد الله بن أبي بن سلول ومن كان على شاكلته في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن تابعه على النفاق بعد ذلك إلى آخر

الزمان.

(٢٦) بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات

١-حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي أَضْحًى أَوْ فِطْرٍ إِلى الْمُصَلَّى فَمَرَّ عَلى النِساءِ فَقَالَ: (يا مَعْشَرَ النِّساءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنّي أُريتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ فَقُلْنَ: وَبِمَ يا رَسُولَ اللهِ قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشيرَ، ما رَأَيْتُ مِنْ ناقِصاتٍ عَقْلٍ وَدينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحازِمِ مِنْ إِحْداكُنَّ قُلْنِ: وَما نُقْصانُ دِينِنا وَعَقْلِنا يا رَسُولَ اللهِ قَالَ: أَلَيْسَ شَهادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهادَةِ الرَّجُلِ قُلْنِ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ نُقْصانِ عَقْلِها، أَلَيْسَ إِذا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ قُلْنَ: بَلى، قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ نُقْصانِ دِينِها). متفق عليه.

الشرح:

فيه مشروعية تخصيص النساء بموعظة أو درس علمي على حسب اقتضاء الحاجة والمصلحة مع أمن الفتنة وقد كن النساء طلبن من النبي صلى الله عليه وسلم تخصيصهن بموعظة. وفيه إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بأمر من أمور الغيب يحصل في الآخرة وهو أن أكثر أهل النار من النساء وقد أخبر أن أهلها الجبارون وأخبر بأن أهل الجنة هم الضعفاء وغير ذلك مما هو حق يجب الإيمان به وعدم الارتياب في قبوله وهو دليل على صدق نبوته وصحة رسالته صلى الله عليه وسلم. وإنما كان النساء من أكثر أهل النار لما يغلب عليهن من التساهل الشديد في حفظ جارحة اللسان فيكثرن اللعن والسخرية والكذب والاستهزاء والشماتة ونقل الشائعات ولما عرف عنهن من كفران نعمة الزوج والتنكر لجميله وعدم حفظ المعروف له كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لو أحسن إليها الزوج الدهر كله ثم قصر في شيئ قالت له ما رأيت

منك خيرا قط. والمراد بالكفر هنا هو الأصغر جحد نعمة الزوج وليس الأكبر الناقل من الملة. وهذا الحكم على النساء على سبيل العموم والأغلب أما على سبيل التفصيل فقد يوجد في النساء من يغلب عليها صلاحها في الدين واستقامتها في الخلق وورعها في اللسان وحفظها لحقوق الزوج والقيام بأمره على أحسن وجه وقد يوجد في النساء من تكون أكمل وأفضل من كثير من الرجال. وفيه أنه يشرع للمرأة أن تكثر من الصدقة والأعمال الصالحة لتكفر ما يقع منها من تفريط وتقصير في اللسان وغيره وهكذا يشرع للمؤمن أن يستكثر من الصالحات لتكفر السيئات وتغفر الزلات وترفع الدرجات. وفيه أن المرأة مهما بلغت من الكمال فهي ناقصة في عقلها ودينها بالنسبة للرجل كما وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ولذلك راعى الشرع خلقها وطبيعتها وعقلها فجعل شهادتها على نصف شهادة الرجل كما قال تعالى: (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى). وأسقط عنها العبادة حال الحيض والأعمال الشاقة كالجهاد والولاية وصلاة الجماعة وغير ذلك مما لا يناسب طبيعتها وتكوينها وانشغالها بالحمل والولادة وتربية الولد ورعاية الزوج والحنان على أفراد الأسرة ولذلك جعل الله سبحانه العاطفة في المرأة غالبة على عقلها وهذا التشريع ليس فيه إهانة للمرأة أو ازدراء بها أو استخفاف بوظائفها بل هو غاية الحكمة وعين العقل والعدل والإنصاف معها ووضع الأمور في نصابها والله عز وجل أعلم وأحكم بعباده من أنفسهم قال تعالى: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ). وفي هذا الحديث رد صريح على دعاة الفتنة الذين ينادون بمساواة المرأة بالرجل في جميع شؤون الحياة ويكلفون المرأة بمزاولة الأعمال الخاصة بالرجال ويدعون إلى نزع ولاية الرجل عنها ويخالفون الشرع والفطرة السوية. ولا يقتضي هذا الوصف نقص المرأة في جميع الأمور بل دل الشرع على كمالها في الأمور الأخرى وكلفها بأنواع التكاليف وأناط بها تحمل الأمانات كالرجل وكان لها دور حسن في نصرة هذا الدين والدعوة إليه والإصلاح والبذل والتاريخ حافل بمواقف المرأة المشرفة في الأزمات وإنما المقصود أن تعرف المرأة قدرها وقدراتها فلا تتجاوز الشرع ولا تحمل نفسها مالا تطيق. ومن أنكر نقص المرأة في عقلها ودينها بعقله الفاسد فهو زائغ عن الحق ومعترض على حكم الله ومكذب لحديث رسول الله صلى

الله عليه وسلم ومتبع لمذهب العقلانيين قال أحمد بن حنبل: (من رد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على شفا هلكة). وفيه تسلية للزوج عما يلاقيه من كفران وجحود أو تعدي من قبل المرأة فإذا عرف أن التقصير والتساهل والطمع وحب اللهو والباطل غالب على طبيعة النساء هان عليه الأمر وتعامل معها بحكمة وصبر وأناة واستمتع بها من غير أن يطلب الكمال فيها كما أرشد الشرع لذلك وكان على حذر من قوة تأثيرها وشدة سحرها على عقله وقلبه ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر) متفق عليه. وفيه دليل صريح على نقصان الإيمان في المرء بنقصان الطاعة لأن النبي صلى الله عليه وسلم علل نقصان الدين بنقصان الطاعة وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

(٢٧) بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال

١–حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ فَقَالَ: (إِيمانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ قِيلَ: ثُمَّ ماذا قَالَ: الْجِهادُ في سَبيلِ اللهِ قِيلَ: ثُمَّ ماذا قَالَ: حَجٌّ مَبْرورٌ).

٢– حديث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم: أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ قَالَ: (إِيمانٌ بِاللهِ وَجِهادٌ في سَبيلِهِ قُلْتُ: فَأَيُّ الرِّقابِ أَفْضَلُ قَالَ: أَغْلاها ثَمَنًا وَأَنْفَسُها عِنْدَ أَهْلِهَا قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلَ قَالَ: تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ قَالَ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ قَالَ: تَدَعُ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ فَإِنَّها صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِها عَلى نَفْسِكَ).

٣–حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلى اللهِ قَالَ: الصَّلاةُ عَلى وَقْتِها قَالَ: ثُمَّ أَيّ قَالَ: ثُمَّ بِرُّ الْوالِدَيْنِ قَالَ: ثُمَّ أَيّ قَالَ: الْجِهادُ في سَبيلِ اللهِ قَالَ حَدَّثَني بِهِنَّ، وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي).

الشرح:

دلت هذه الأحاديث على أن الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال وأعلى الشعب التي يتقرب بها العبد لله تعالى وذلك لأنه أصل الأعمال فلا تصح إلا به ولأنه أول واجب على المكلف فلا تقبل منه سائر الأعمال من عمل القلب واللسان والجوارح إلا بتحقق الإيمان ولأنه به تزكو النوافل ويعظم ثوابها قال تعالى: (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ). ولا شك أنه لا يمكن للمكلف أن يأتي بالجهاد أو الحج أو الصلاة أو غيره من الأعمال إلا يكون الإيمان مقرونا بهذا العمل لا ينفك عنه ولا يتخلف عنه فعلى هذا يكون مراد النبي صلى الله عليه وسلم في تقديم الإيمان وتفضيله بيان أهمية الإيمان وعظم منزلته أو يكون المراد بالإيمان بهذا السياق ما يقوم في قلب العبد من القول والعمل من التصديق والتعظيم والخوف والرجاء والمحبة واليقين وغير ذلك من أعمال القلوب. واختلاف جواب النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه يرجع على الصحيح إلى اختلاف الأحوال والأشخاص والأسباب الداعية للجواب. وفي هذه الأحاديث فضل الجهاد في سبيل الله وقد تكاثرت النصوص على عظم منزلته في الدين لأنه السياج الحصين الذي يحمي الدين وبيضة المسلمين ويساهم في نشر الإسلام في المعمورة قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ). ولكن يشترط في مشروعيته وتحقق فضله وثوابه أن يكون مشروعا موافقا للشرع في الباطن والظاهر بهذه الشروط:

الأول: أن يكون القتال لإعلاء كلمة الله خالصا لوجه الله تعالى لا لأجل حمية ولا رياء ولا قومية وليس لأجل الدنيا.

الثاني: أن يكون بإذن الإمام الشرعي.

الثالث: أن يكون تحت راية شرعية ظاهرة لا يختلف فيها أهل الحق.

الرابع: أن يكون القتال موافقا لأحكام الشرع الواردة في الجهاد خاليا من الظلم

والغلول.

وفيها دليل على فضل الحج التام الكامل الخالص من مفسدات العمل ومنقصاته في النية والعمل بحيث يكون الحج خالصا لوجه الله سالما من الرفث والفسوق والبطلان فهذا هو الموجب للجنة وتكفير جميع السيئات قال تعالى: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ). وقد ورد في الصحيحين أن الحج المبرور يغفر الذنوب كيوم ولدته أمه. ودل الحديث على فضل عتق أغلى الرقاب عند الناس لوجه الله تعالى فمن أعتق رقبة مؤمنة في الدنيا أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار يوم القيامة كما ورد في الصحيحين فالجزاء من جنس العمل وقال تعالى: (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ). وفيه فضل الإحسان إلى الناس بصنع المعروف لهم خاصة ذوي الحاجة والعاهة وقلة المعرفة بطرق الكسب قال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ). وقد قل العمل بهذه السنة في زماننا. وفيه فضل كف الأذى والشر عن الخلق مع كونها من التروك لأن الشريعة جاءت بتعظيم حرمات المسلمين واحترام ممتلكاتهم. ودل الحديث الثالث على فضل أداء الصلاة في أول وقتها لعظم شأنها فهي أعظم عمل يتصل به العبد بربه ويقوم بحقه ولم يرد في الشريعة اهتمام وتأكيد على عمل كالصلاة ولا يحافظ عليها إلا مؤمن وإنما فضل المبادرة بها أول الوقت لأنه أبرا للذمة ومن المسابقة للخيرات ويدل على كمال التعظيم لله في قلب العبد لأنه قدم طاعة الله ومحبته ومراده على محبته ومراده من زخرف الدنيا وزينتها وقد قال تعالى: (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ). وذكر النبي صلى الله عليه وسلم حسن صحبة الوالدين وخدمتهما في فضائل الأعمال لأن الله قرن شكرهما بشكره فمن شكر الله شكرهما ومن كفر نعمة الله كفرهما وكان مضيعا لحقهما غالبا قال تعالى: (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ). وبر الوالدين أعظم طريق لسعادة المرء ورضاه وتوفيقه في الدنيا والآخرة فهنيئا لمن شرفه الله ببرهما وتعظيمهما.

(٢٨) كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده

١-حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ قَالَ: (أَنْ تجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قلْتُ: ثمَّ أَيّ قَالَ: وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تخافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَك، قُلْتُ: ثُمَّ أيّ قَالَ: أَنْ تُزانِيَ حَلِيلَةَ جارِكَ).

الشرح:

فيه حرص الصحابة على معرفة أخطر الشرور ليحذروها وهذا يدل على كمال الفقه فإن العاقل لا يخفى عليه معرفة الشر وإنما يخفى عليه معرفة أشر الشرين فينبغي أن يتكلف البحث والنظر والسؤال ليعرفه قال ابن تيمية: (وتمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات ويرى ذلك من الورع).

وفيه أن الشرك بالله من أعظم الذنوب لأنه ظلم محض في حق الله تبارك وتعالى وليس فيه حظ من حظوظ النفس كسائر ذنوب الشهوات. والشرك هو تسوية الخالق بالمخلوق في شيء من خصائص الله سواء كان في الربوبية أو في الألوهية أو في الأسماء والصفات فكل من صرف العبادة لغير الله أو اعتقد اعتقادا بمخلوق لا يليق إلا بالله فهو مشرك والمشرك من أشد الظالمين والمفسدين في الأرض لأنه تذلل وخضع ورجا حصول النفع واندفاع الضر في المخلوق العاجز الذي لا يجلب نفعا ولا يدفع ضرا لنفسه فكيف بغيره قال ابن تيمية: (فمن جعل لله ندا من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الإلهية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة فإن الله سبحانه هو المستحق للعبادة

لذاته لأنه المألوه المعبود الذي تأله القلوب وترغب إليه وتفزع إليه عند الشدائد وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية فكيف يصلح أن يكون إلها). والمشرك قد انتقص الرب وأساء لجنابه ونسب له الشرور وما قدره حق قدره ولذلك شدد الله في هذا الذنب وعظم جزائه. قال تعالى: (إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ). فالشرك محبط للأعمال ومخرج من الملة ومخلد في النار ولا يغفره الله تعالى.

والشرك قسمان:

١- شرك أكبر: وهو صرف أي عبادة لغير الله بحيث يتقرب العابد لغير الله.

٢- شرك أصغر: وهو كل عمل أو اعتقاد سماه الشارع شركا ولم يصل إلى معنى صرف العبادة لغير الله وهو وسيلة غالبا للشرك الكبر وقد يكون ظاهرا وقد يكون خفيا وهو أنواع وصور كثيرة منه ما يتعلق بالمقاصد والنيات كالرياء ومنه ما يتعلق بالألفاظ كالحلف بغير الله ومنه ما يتعلق بالأسباب كلبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه. وينبغي على المؤمن أن يبالغ في الخوف من الوقوع في الشرك لا سيما الخفي منه ويحذر أشد الحذر من تعاطي أسبابه والتساهل فيه كما كان إمام الحنفية إبراهيم عليه السلام يخاف على نفسه الوقوع في الشرك كما قال تعالى: (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ). وكان إبراهيم التيمي يقول: (من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم). وفيه أن قتل الولد خوفا من الفقر من أعظم الذنوب لشدة حرمة الولد وعظيم الظلم لمن حقه متأكد والتسخط للقضاء وسوء الظن بالله من الخوف من الفقر في المستقبل وهذا فيه ترك للتوكل على الله وهو من عمل أهل الجاهلية والله أرحم بعباده من الوالد بولده ولذلك نهى عن قتل الولد قال تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا). وفيه شدة جرم الزنا بامرأة الجار لما في ذلك من الخيانة والغدر وهتك حرمة الجوار التي عظمها الشارع وشدد في أمرها ولأن النفوس الكريمة تأنف من التشوف لهذا المنكر مع سهولة ارتكابه فالداعي إلى الشهوة ضعيف والمانع عنه ضعيف أيضا وقد نهى الله عن قربان الزنا لشدة جرمه وكثرة مفاسده قال تعالى: (وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً). وقال أحمد بن حنبل: (ولا أعلم بعد قتل النفس ذنبا أعظم من الزنا). وفيه أن الذنوب تتفاوت في الجرم والعقوبة في

الآخرة بحسب ما يقترن بها من المعاني والمقاصد والأحوال فالشارع شدد في الشرك لأنه كفر بنعمة الله وصفاته وتفرده فهو المستحق وحده للعبادة وشدد في قتل الولد لما في ذلك من اتباع الشيطان وترك التوكل الشرعي وشدد في الزنا بالجارة لما في ذلك من الغدر والخيانة وهذا يبين أن الناس يتفاوتون في درجة فعل المنكر المعين من حيث العقوبة والذم بحسب الغرض والمقصد والحال كما يتفاوتون في فعل الطاعة من حيث المدح والثواب بحسب مقاصدهم وأحوالهم وإخلاصهم وتجردهم لله.

(٢٩) بيان الكبائر وأكبرها

١–حديث أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبائِرِ ثَلاثًا، قَالُوا: بَلى يا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: الإِشْراكُ بِاللهِ وَعُقوقُ الْوالِدَيْنِ وَجَلَسَ، وَكانَ مُتَّكِئًا، فَقالَ أَلا وَقَوْلُ الزّورِ قَالَ فَما زَالَ يُكَرِّرُها حَتّى قُلْنا لَيْتَهُ سَكَتَ).

٢– حديث أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنِ الْكَبائِرِ قَالَ: (الإِشْراكُ بِاللهِ، وَعُقوقُ الْوالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَشَهادَةُ الزّورِ).

٣– حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقاتِ قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ وَما هُنَّ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِناتِ الْغافِلاتِ). ٤– حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ والِدَيْهِ قِيلَ يا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ والِدَيْهِ قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَباهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ).

الشرح:

دلت هذه النصوص على أن الذنوب في الدين قسمان: صغائر وكبائر فالكبائر جمع كبيرة والضابط فيها على الصحيح كل ذنب رتب الشارع على فعله حدا أو لعنة أو غضبا أو وعيدا خاصا ونحوه مما يدل على تشديد الشارع فيه وهو يشمل عمل القلب كالكبر وعمل اللسان كالغيبة وعمل الجوارح كالزنا قال ابن تيمية: (أمثل الأقوال في هذه المسألة القول المأثور عن ابن عباس وذكره أبو عبيد وأحمد بن حنبل وغيرهما وهو: أن الصغيرة ما دون الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة وهو معنى قول من قال: ما ليس فيها حد في الدنيا وهو معنى قول القائل: كل ذنب ختم بلعنة أو غضب أو نار فهو من الكبائر). فالكبيرة تحد ولا تعد كما قال ابن عباس رضي الله عنه هي أقرب إلى السبعمائة من السبعين وإنما وضع العلماء مصنفات في بيان أنواعها من باب التقريب. والصغيرة ما سوى ذلك من الذنوب التي خلت من هذه الأوصاف فهي كل ذنب حرمه الشارع من باب الوسائل ولم يشدد فيه وهي جمهور الذنوب. وقد يختلف الفقهاء في دخول ذنب في حد الكبيرة ولكنه ليس في منزلة المنصوص عليه شرعا. ودلت أيضا على أن من الكبائر نوع أكبر من غيره كالإشراك والعقوق وشهادة الزور وإنما غلظ الشارع فيها لأنها من جنس الظلم ووضع الحق في غير موضعه فالشرك هضم لحق الرب العظيم والعقوق كان شديدا لأنه كفر بنعمة الوالدين وجحود لمعروفهما الذي لا يستطيع الولد مكافأتهما مهما فعل من البر وشهادة الزور عظمها النبي صلى الله عليه وسلم في صفة جلوسه لأن الشاهد يتوصل بشهادته الباطلة ويمينه الكاذبة إلى اقتطاع مال مسلم أو إبطال حق للغير فهي خديعة وحيلة في أكل أموال الناس بالباطل فلذلك كانت اليمين الغموس تغمس صاحبها في النار وقد قرنها الله بالشرك قال تعالى: (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ). ومن الأفعال الشنيعة التي توبق صاحبها في النار تعاطي السحر وهو ما يعقده الساحر من آثار المسحور وينفث عليه من الرقى الشيطانية ليصرف المسحور أو يعطفه أو يمرضه أو يهلكه ولا يتمكن من ذلك إلا بعبادة الشياطين والتقرب لهم من دون الله وتعلم السحر وتعليمه وصنعه كفر بالله موجب للردة وحده القتل قال تعالى: (وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ). ومن العظائم قتل النفس المعصومة من غير سبب يبيح القتل وهذا يدل على

خطورة التساهل في هذا الباب قال تعالى: (وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ). ومنها أكل الربا وهو من عمل الجاهلية ولم يشدد في القرآن بذنب بعد الشرك كالربا فالمرابي محارب لله ورسوله لأنه يأكل أموال الفقراء ويتكبر عليهم بالباطل قال تعالى: (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ). ومنها التعرض لأموال اليتامى الضعفاء القصر الذين لا أحد يحميهم ويطالب بحقوقهم وأكلها بالباطل وهو من عمل أهل الخسة والدناءة قال تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا). ومنها الهروب والفرار من ساحة القتال عند حضور صف قتال الكفار لأن ذلك يوهن قلوب المسلمين ويخذلهم عن القتال ويؤدي إلى غلبة الكفار عليهم ولذلك شدد في حكمه وتوعد عليه قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ). وهذا الحكم خاص بمن حضر الصف أما لو ترك قبل بلوغ المعركة أو كان في سرية تكر وتفر أو غير موقعه للقتال أو لقي عددا كثيرا لا يطيق قتالهم فانحاز لجماعة المسلمين فلا يكون من الفارين ولا يلحقه الوعيد لأنه لم يقصد التخلي عن الجهاد. ومن الكبائر رمي النساء المؤمنات العفيفات بالزنا من غير بينة وبرهان ووصفهن بالغافلات لأنهن في غفلة عن كلام الناس في مجالسهم وشدد فيه لعظم حرمة أعراض المسلمين وخطورته قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ). ومن أكبر الكبائر أن يتسبب المرء في لعن الآخرين لوالديه بأن يسب والديهم فيسبوا والديه من باب المماثلة والمكافأة وهو نوع من العقوق فينبغي للإنسان أن يتوقى لعن الناس وشتمهم وعيبهم ولو كانوا من أهل الكفر والفسق لأن ذلك يؤدي إلى انتقاص قومه ووالديه وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسب خصومه ولا يلعنهم ويتعفف عن الدخول في النقائص والعيوب الشخصية. ومن هذا الباب أن يسب المسلم آلهة المشركين فيتسبب في سب المشركين لله عز وجل وقد نهى الله عنه بقوله: (وَلاَ تَسُبُّواْ

الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ). قال قتادة: (كان المسلمون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم فنهاهم الله أن يسبوا لربهم فإنهم قوم جهلة لا علم لهم بالله). رواه الطبري. والكبائر لا تكفر إلا بالتوبة النصوح منها وأما الصغائر فتكفر بالأعمال الصالحة بشرط اجتناب الكبائر قال تعالى: (إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا). وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر). فالواجب على المسلم أن يحذر الوقوع في هذه الكبائر التي حذر منها النبي صلى الله عليه وسلم ويبتعد عن الوسائل التي توقع فيها لأن الإصرار على الصغائر يجر إلى الكبائر وإذا أغواه الشيطان فليقلع ويتب منها ويحرص أشد الحرص على أن لا يلقى الله وهو مصر على كبيرة وقد ورد في مسند أحمد النهي عن احتقار الصغائر واستسهالها وقال ابن القيم: (وها هنا أمرٌ ينبغي التفطّن له وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر وقد يقترن بالصغيرة من قلّة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر بل يجعلها في أعلى المراتب وهذا أمرٌ مرجعه إلى ما يقوم بالقلب وهو قدر زائد على مجرّد الفعل والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره). وهذا معنى ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه: (لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار).

(٣٠) من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة

١ –حديثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (مَنْ ماتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ وَقُلْتُ أَنا: مَنْ ماتَ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ).

٢- حديث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (أَتانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فَأَخْبَرَنِي، أَوْ قَالَ بَشَّرَنِي، أَنَّهُ مَنْ ماتَ مِنْ أُمَّتِي لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ قلْتُ: وَإِنْ زَنى وَإِنْ سَرَق قَالَ: وَإِنْ زَنى وَإِنْ سَرَق).

٣- حديث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَعَلَيْهِ ثَوْبٌ أَبْيَضُ وَهُوَ نائِمٌ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَقَدِ اسْتَيْقَظَ، فَقالَ: (ما مَنْ عَبْدٍ قَالَ لا إِلهَ إِلاّ اللهُ ثُمَّ ماتَ عَلى ذَلِكَ إِلاّ دَخَلَ الْجَنَّةَ قُلْتُ: وَإِنْ زَنى وَإِنْ سَرَق قَالَ: وَإِنْ زَنى وَإِنْ سَرَقَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنى وَإِنْ سَرَق قَالَ: وَإِنْ زَنى وَإِنْ سَرَقَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنى وَإِنْ سَرَق قَالَ: وَإِنْ زَنى وَإِنْ سَرَق عَلى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ وَكانَ أَبُو ذَرٍّ إِذا حَدَّثَ بِهذا قَالَ وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ).

الشرح:

في حديث ابن مسعود رضي الله عنه دلالة على أن من مات متلبسا بالشرك كان مصيره إلى النار خالدا مخلدا فيها كما قال تعالى: (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ). والمراد بذلك الشرك الأكبر الذي فيه صرف العبادة لغير الله لأن الشرك إذا أطلق في لسان الشرع انصرف إلى الأكبر إلا بقرينة أما الشرك الأصغر فلا يوجب الخروج من الملة والخلود في النار باتفاق أهل السنة وقد اتفقوا على أن الشرك الأكبر يحبط العمل ويخرج من الملة ويوجب الخلود في النار قال تعالى: (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). وإنما كان الشرك كذلك لأنه غاية الظلم ومنتهاه كما قال تعالى: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ). ودل الحديث بمفهومه أن من مات موحدا مخلصا في عبادته كان مصيره إلى الجنة كما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً). وقد صرح به الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث أبي ذر وهذا المفهوم قد فهمه الصحابي الجليل ابن مسعود بمقتضى اللغة ودلالة الكلام وقد كان رضي الله عنه محققا للتوحيد في دعوته ومذهبه وأهل بيته. وفي حديث أبي ذر زيادة توضيح وبيان لهذه القضية وهي أن الموحد مآله وعاقبته إلى الجنة فقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الموحد يدخل

الجنة مطلقا ولو وقع منه بعض الكبائر من الزنى والسرقة وغيرها وقد استشكل الصحابي أبو ذر رضي الله عنه دخول الموحد صاحب الكبائر الجنة فدفع الرسول صلى الله عليه وسلم عنه هذا الإشكال. وهذا الإطلاق في هذا الحديث مقيد بأحاديث أخرى صحاح تدل على استحقاق صاحب الكبيرة دخول النار وهو أمر محفوظ عند علماء أهل السنة لكن الموحد وإن دخل النار يؤول أمره إلى الجنة ولا يخلد في النار مطلقا والتحقيق في هذا المقام أن يقال أن دخول الموحد الجنة له حالتان:

الأولى: أن يدخل الجنة مباشرة بلا عذاب ولا حساب إذا كان إيمانه تاما وغلبت حسناته سيئاته نتيجة تحقيق التوحيد بتخليصه من الشرك والبدع والكبائر كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك في حديث السبعين ألف الوارد في الصحيحين.

الثانية: أن يدخلها بعد أن يمحص ويعذب بالنار إذا كان إيمانه ناقصا ومرتكبا للعظائم وينتهي حاله إلى الجنة ويستقر فيها أو يعفو الله عنه ويرحمه فيسقط عنه العذاب ويدخله الجنة كما دلت النصوص والروايات المحفوظة على هذا التفصيل المحكم وعليه اعتقاد أهل السنة.

وبهذا يتبين لنا شدة خطورة الشرك بجميع أنواعه وصوره وسوء عاقبته ومع شدة عناية الشارع في بيان خطره والتحذير من الوقوع فيه إلا أن كثيرا من المتأخرين متساهل في النهي عنه مما أدى إلى انتشاره وظهوره في كثير من بلاد المسلمين تحت حماية الدول وعلماء السوء وأصبح تعظيم الأولياء وقصد أضرحتهم والتوجه لهم ثقافة راسخة عند كثير من العوام وأشاعوا لدى العوام دعاية سيئة مغرضة في التحذير من الموحدين الذين يدعون للتوحيد ونعتهم بالوهابيين وإلصاق التهم والأكاذيب بهم. وفي الأحاديث خطورة الخاتمة وأن العبرة في الأعمال بالخواتيم وهذا يوجب على المرء شدة الحذر والخوف من الردة والانتكاسة قبل الموت. وفي الحديث رد صريح على الخوارج الذين يخلدون أهل الذنوب في النار فقد أوجب الرسول صلى الله عليه وسلم دخول الجنة لصاحب الكبيرة وذلك يدل على أن الكبيرة لا تنافي مطلق الإيمان ولا تزيل وصف الإيمان عن مرتكبها وهذا أمر مقرر في جملة من نصوص الكتاب والسنة وعليه إجماع أئمة السنة.

(٣١) تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله

١- حديث الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ (هُوَ الْمِقْدادُ بْنُ عَمْرٍو الْكِنْدِيُّ) أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلاً مِنَ الْكُفّارِ، فَاقْتَتَلْنا، فَضَرَبَ إِحْدى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَها، ثُمَّ لاذَ مِنّي بِشَجَرَةٍ، فَقالَ أَسْلَمْتُ للهِ، أَأَقْتُلُهُ يا رَسولَ اللهِ بَعْدَ أَنْ قالَها فَقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (لا تَقْتُلْهُ، فَقالَ يا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ قَطَعَ إِحْدى يَدَيَّ ثُمَّ قالَ ذَلِكَ بَعْدَ ما قَطَعَها؛ فَقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: لا تَقْتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقولَ كَلِمَتَهُ الَّتي قالَ).

٢- حديث أُسامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما قالَ: بَعَثَنا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلى الْحُرَقَةِ فَصَبَّحْنا الْقَوْمَ فَهَزَمْناهُمْ، وَلَحِقْتُ أَنا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ رَجُلاً مِنْهُمْ، فَلَمّا غَشِيناهُ قالَ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ، فَكَفَّ الأَنْصارِيُّ عَنْهُ، وَطَعَنْتُهُ بِرُمْحي حَتّى قَتَلْتُهُ؛ فَلَمّا قَدِمْنا، بَلَغَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقالَ: (يا أُسامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَما قالَ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ، قُلْتُ كانَ مُتَعَوِّذًا؛ فَما زالَ يُكَرِّرُها حَتّى تَمَنَّيْتُ أَنّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ).

الشرح:

في حديث المقداد دليل على احترام الكافر وعدم التعرض له إذا نطق وصرح بالشهادتين وذلك لأن المرء إذا نطق بذلك صار مسلما معصوم الدم والمال والعرض وهذا يدل على عظم كلمة التوحيد وشدة أثرها وترتب الأحكام عليها في الدنيا والآخرة وقد أجمع أهل السنة على أن الكافر يصير مسلما بالنطق بالشهادتين قاصدا مختارا وهذا المعنى جاء مقررا في جملة من النصوص وعمل به النبي صلى الله عليه وسلم

حين زار الغلام اليهودي وهو يحتضر فلما نطق بالشهادة أقره وأثبت له الإسلام كما في البخاري. ويجب الكف عنه حينئذ مهما فعل قبل ذلك من الجناية والنكاية بالإسلام وهذا يدل على رحمة هذا الدين وتشوفه لهداية الخلق. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال). يعني: إن قتلت هذا الرجل بعد إسلامه فأنت تصبح كحاله قبل الإسلام مباح الدم لأنك ارتكبت جناية توجب القصاص وهو يصبح كحالك قبل أن تقتل معصوم الدم وهذا فيه زجر وتخويف من ارتكاب هذه الفعلة الشنيعة التي تساهل فيها الغلاة في هذا الزمان وليس المقصود أن تكون كافرا لأن المسلم لا يكفر بالقتل وإنما المقصود أن تبوء بإثم القتل. وفيه مشروعية بيان الواعظ حكم الذنب وعقوبته للجاهل والغافل. وفي حديث أسامة حين قتل الرجل الذي نطق بلا إله إلا الله إنكار النبي صلى الله عليه وسلم عليه قتل المعصوم والتشديد عليه في الإنكار ولم يؤاخذه النبي صلى الله عليه وسلم ويوجب عليه قصاصا لأن معاذا كان متأولا بشبهة في وقت نزول الفرائض وقد خفي عليه ذلك. وأما الكفارة والدية فقد سكت الحديث عنهما والأصول العامة تقتضي وجوبهما وعدم سقوطهما. وفيه وجوب معاملة الإنسان بالظاهر وقبول إسلامه وعدم الخوض في الأسباب والتشكيك في نيته مهما كانت القرائن فمن أظهر الكفر عاملناه به ومن أظهر الإسلام عاملناه به ولهذا لم يلتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى قول أسامة إن هذا الرجل غير صادق في إسلامه وإنما قالها فرارا من القتل وردد عليه حرمة قائل الشهادة على سبيل الإنكار وفي رواية قال: (أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا). حتى شق ذلك على أسامة فتمنى أنه لم يشهد تلك الوقعة حال إسلامه وإنما فعها حال كفره ثم أسلم لأن الإسلام يجب ما قبله .

وهذا هو مقتضى العدل أن نأخذ الناس بظاهر أقوالهم وأفعالهم ونكل سرائرهم إلى الله عز وجل لأنه وحده المطلع على ما تخفي الصدور وفي الآخرة تكشف السرائر قال تعالى: (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ). وهذا المنهج كان مستقرا عند الصحابة قال عمر رضي الله عنه: (إن أناسا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم فمن أظهر لنا خيرا أمناه

وقربناه وليس إلينا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته ومن أظهر لنا سوءا لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة). رواه البخاري. والتفتيش عن سرائر الناس والطعن في مقاصدهم غلو وتكلف ليس من الإسلام في شيئ. وفي الحديثين إشارة إلى عظم جهود الصحابة رضوان الله عليهم في القتال في سبيل الله ونصرة الدين حتى انتشر في المعمورة.

(٣٢) قول النبي صلى الله عليه وسلم من حمل علينا السلاح فليس منا

١- حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (مَنْ حَمَلَ عَلَيْنا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنا).

٢- حديث أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاحَ فَلَيْسَ مِنّا).

الشرح:

دل الحديثان على النهي الشديد عن حمل السلاح ضد جماعة المسلمين والمقصود تحريم الخروج على الإمام الشرعي مطلقا مهما كانت الأسباب والبواعث وهذا المعنى جاء مقررا في جملة من الأحاديث الصحاح وقد اتفق أهل السنة على تحريم الخروج على أئمة الجور وجرى العمل على ذلك عند أئمة السلف أمروا بالصبر على أئمة الجور ونهوا عن قتالهم ودونوه في عقائدهم قال ابن تيمية: (ولهذا استقر أمر أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم وإن كان قد قاتل في الفتنة خلق كثير من أهل العلم والدين). وإنما نهى الشارع عن هذا القتال لأنه يفضي إلى استباحة دماء المسلمين وتفرق كلمتهم وخلخلة صفهم وزوال

هيبة جماعة المسلمين وطمع العدو في الاستيلاء على بلاد المسلمين قال أبوالحارث الصائغ: (سألت أحمد بن حنبل في أمر كان حدث ببغداد وهم قوم بالخروج فقلت: يا أبا عبد الله ما ترى في الخروج مع هؤلاء فأنكر ذلك عليهم وجعل يقول: سبحان الله الدماء الدماء لا أرى ذلك ولا آمر به الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة يسفك فيها الدماء ويستباح فيها الأموال وينتهك فيها المحارم أما علمت ما كان الناس فيه يعني أيام الفتنة. قلت: والناس اليوم أليس هم في فتنة يا أبا عبد الله. قال: وإن كان فإنما هي فتنة خاصة فإذا وقع السيف عمت الفتنة وانقطعت السبل الصبر على هذا ويسلم لك دينك خير لك). وعند التأمل يظهر أنه ما من بلد تمكن منه الكفار إلا وكان سببه غالبا نشوب الفتنة والاختلاف بين أهله. وكذلك يكره إظهار السلاح في مجامع الناس ومساجدهم وأسواقهم إذا خشي الضرر لما في حديث جابر قال: (مر رجل في المسجد بسهام فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمسك بنصالها). رواه مسلم. وورد النهي الشديد عن الإشارة بالسلاح على أخيه المسلم كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار). فيحرم على المسلم المشاركة في قتال الفتنة أو قتال البغي في جماعة المسلمين سواء كان عن طريق الدعوة لذلك أو تحريض الرعية أو التجهيز بالمال أو المشاركة بالنفس لأن ذلك من الكبائر العظام التي زجر عنها الشرع وشدد النكير فيها. وإذا مات المؤمن خالعا بيعة إمامه الشرعي لقي الله وهو على جاهلية كما صح الخبر بذلك. وكذلك يحرم على المسلم أن يستبيح حرمة المجتمع المسلم بالسلاح عند غياب الولاية الشرعية أو عدم اجتماع أهل الحل والعقد على إمام معين لأن حرمة دماء المسلمين عظمها الشرع فلا يخاطر أحد بها إلا بمقتضى الشرع ولذلك شدد العلماء الراسخون في حكم إباحة الخروج واشترطوا شروطا يندر أن تتحقق واقعا وقد دل التاريخ على أنه ما من قوم خرجوا على الجماعة إلا ووقع لهم شر وفتنة أشد مما كانوا عليه قال ابن تيمية: (وقل من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير). فيجب على المؤمن أن لا يقدم على أمر في هذا الباب الخطير حتى

يستفتي العلماء الكبار المشهود لهم بالورع والفقه والحكمة ومراعاة المصالح والمفاسد والرفق بالأمة. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس منا). أسلوب يستعمله النبي صلى الله عليه وسلم في الزجر والنهي عن ارتكاب فعلة معينة والمراد ليس على طريقتنا وهدينا وكان بعض السلف كسفيان بن عيينة وغيره يمر هذا اللفظ على سبيل الزجر ولا يتعرض لمعناه حتى يكون أبلغ في النفس وأوقع وليس المراد مطلقا أنه خارج عن الملة فإن هذا الفهم لم يفهمه أحد من أئمة السلف وهو جار على أصول الخوارج لا كثرهم الله الذين يكفرون بالذنوب فالمؤمن لا يكفر بقتال المسلمين لشبهة أو فسوق أو ظلم وإنما يكفر فقط إذا استحل ذلك عن علم وبصيرة.

(٣٣) تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية

١–حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم (لَيْسَ مِنّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعا بِدَعْوى الْجاهِلِيَّةِ).
٢–حديث أَبِي مُوسَى رضي الله عنه وَجِعَ أَبُو مُوسَى وَجَعًا شَديدًا فَغُشِي عَلَيْهِ وَرَأْسُهُ في حَجْرِ امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْها شَيْئًا؛ فَلَمَّا أَفاقَ قَالَ (أَنا بَرِيءٌ مِمَّنْ بَرِئَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَةِ وَالْحالِقَةِ وَالشَّاقَّةِ).

الشرح:
هذان الحديثان يدلان على النهي عن أفعال تنافي كمال الإيمان الواجب وتقدح فيه.
وقد كانت شائعة في أهل الجاهلية الذين كانوا يتعلقون بالخرافات والأوهام وتصدر

منهم حال البلاء والمصائب أفعال وأقوال تدل على قلة إيمانهم بالله وأقداره المؤلمة.

وقد حرص الإسلام على تنقية أصحاب محمد منذ الصدر الأول من شوائب الشرك والنفاق والبدعة وتهذيب إيمانهم وسلوكهم. وحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على حماية جناب التوحيد والسنة بالنهي عن كل ما يقدح في أصلهما أو ينقصهما. ففي الحديث الأول بين الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ليس من طريقته وهديه فعل هذه الخصال الثلاث الجاهلية وهذا يدل على النهي عنها والتنفير منها وأنها من كبائر الذنوب وهي:

الخصلة الأولى: أن يلطم المصاب خده أو شيئا من بدنه بشدة.

الخصلة الثانية: أن يشق المصاب ثوبه أو متاعه ونحوه عند المصيبة.

الخصلة الثالثة: أن يصيح المصاب ويرفع صوته بالنياحة أو النعي المحرم والولولة والدعاء بالثبور وغيره من الكلام المحرم مما كان يستعمله أهل الجاهلية.

وكذلك الحديث الثاني في معناه فيه النهي أيضا عن هذه الخصال ولكن ذكر بدل ضرب الخدود حلق الرأس. وقد بين ابن مسعود رضي الله عنه لما أفاق أن الرسول صلى الله عليه وسلم يبرأ من هذه الأفعال لأنها مخالفة للشرع. ومعنى الصالقة هي المرأة التي تصيح بالصوت ، والحالقة هي المرأة التي تحلق رأسها عند المصيبة لإظهار الجزع ، ومعنى الشاقة هي المرأة التي تشق ثوبها أو جيبها عند المصيبة. وإنما خص النبي صلى الله عليه وسلم المرأة بذلك لأنه غالبا يكثر صدور هذه الأفعال عنها لضعفها وقوة عاطفتها وجزعها وعدم تحملها المصيبة ولذلك ورد الوعيد الشديد في نياحة المرأة.

والعلة في نهي الشارع عن هذه الأفعال لأنها تدل على الجزع والتسخط على قضاء الله وقدره وعدم الرضا بالقدر وترك الأمر الشرعي حال البلاء ونزول الضراء والواجب على المؤمن حينئذ الصبر وحبس الجوارح عن كل ما يسخط الله من الأفعال والأقوال والاعتقادات وتفويض الأمر لله والرضا بقدره قال تعالى في الثناء على المؤمنين عند نزول البلاء: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ). وفي تصرف ابن مسعود رضي الله عنه في إنكاره على امرأته لما صاحت دليل على وجوب دعوة الأهل وتربيتهم

على التوحيد ونهيهم عن كل ما يسخط الله. وفيه وجوب إتباع النبي صلى الله عليه وسلم في باب التوحيد والاعتقاد وعدم التهاون في ذلك وهذا ظاهر في منهج الصحابة رضي الله عنهم ومن اتبعهم من أئمة السلف خلافا للمتأخرين. والمتأمل اليوم في أحوال كثيرين من المنتسبين للإسلام يجد ضعفهم الشديد في الرضا بالقضاء وصدور منهم أفعال وأقوال تنافي الإيمان وتسخط الرب من رفع الصوت والعويل وشق الثياب واللطم وذكر صفات الميت والاعتراض على القدر وذم القضاء والدعاء بالهلاك والإساءة في مقام الرب جل في علاه وتقدست أسماؤه وتعالى عما يقوله الجاهلون. ولو أيقن المؤمن بالله وقدره حق قدره وآمن بحكمة الله وعلم أن الأمر أمره والعبيد عبيده والملك ملكه يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل لما صدر منه أي تصرف يسخط الله كما قال تعالى: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ). قال علقمة النخعي: (هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى).

(٣٤) بيان غلظ تحريم النميمة

١-حديث حُذَيْفَةَ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ).

الشرح:

في هذا الحديث بيان لشدة تحريم النميمة لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن النمام لا يدخل الجنة وهذا يدل على أن النميمة كبيرة من كبائر الذنوب لأن الذنب الذي يرتب الشارع على فعله حرمان الدخول للجنة يدل على أنه كبيرة لا تغفر إلا بالتوبة. فالنميمة نقص في الإيمان الواجب وقدح في كماله وسبب لعدم دخول الجنة وعذاب

القبر كما ورد في الصحيحين من حديث ابن عباس وورد ذمها في القرآن كما قال تعالى: (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ). وكل ما ورد في نصوص الوعيد في الذنوب فمقيد بقاعدة أهل السنة في الكبائر كما سبق بيانه. وحد النميمة عند العلماء هي نقل كلام المتكلم إلى المتكلم فيه على سبيل الإفساد سواء تكلم في شخصه أو كسبه أو أهله أو ولده أو نحو ذلك من الأمور الشخصية التي تغضب وتحزن غالبا فيحرم على المسلم مطلقا نقل كلام المرء إلى من تكلم فيهم سواء قصد بذلك الإفساد والوقيعة أم لم يقصد وسواء نقل الكلام إلى الأمير والمسئول والعالم أم لا أما إذا كان نقل الكلام إلى الغير لقصد النصيحة أو التحذير وغير ذلك مما يتحقق فيه مصلحة راجحة كالتحذير ممن أراد الكيد بمسلم أو جماعة فجائز لانتفاء المفسدة ولأنه ورد في الشرع ما يدل على استثناء ذلك. وإنما حرم الشارع النميمة وشدد فيها لأنها سبب كبير للعداوة والبغضاء بين المسلمين والشارع له مسلك حسن في هذا الباب في النهي عن كل طريق ومعاملة تفضي إلى قطع المحبة والمودة بين المسلمين أو تنقصها والشواهد على هذا كثيرة في السنة. وكم تقطعت أواصر بين البيوت والجماعات وأهل الديانة ونشبت فتنة عظيمة من جراء ذلك. والواجب على من سمع من يتكلم في الغير أن ينصحه بالكف عن ذلك ويخوفه بالله ويمسك عن نقله ويرد عن عرض أخيه الغائب وقد ورد فضل عظيم لمن ذب عن عرض أخيه بالغيب كما في مسند أحمد عن أَبِي الدرداء رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم قال: (من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة). والواجب على من بلغته النميمة فيه أن يتثبت ويحسن الظن بالقائل ويعلم أن هذا النمام مفسد كذاب لا يوثق بخبره ولينصحه ويحذر شره لأن من نم إليه نم عنه ونقل كلامه إلى الناس ولا يجوز له أن يبيح لنفسه التجسس على من تكلم فيه. وهذا المقام يقتضي العدل والقصد وكف اللسان ويحتاج إلى إيمان كبير لا يوفق إليه إلا من عصمه الله. والورع كل الورع كف اللسان عن أعراض الخلق إلا بحق. والواجب على من ينشر النميمة بين المسلمين أن يعلم أنه ذليل النفس دنيء الهمة من شرار عباد الله ذو وجهين مبتلى بالنفاق الاجتماعي ساع بالفتنة بين الأحبة ولذلك روي في مسند أحمد عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم: (خيار عباد الله الذين

إذا رؤوا ذكر الله وشرار عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون البرآء العنت). فليتب إلى الله وليصحح وضعه وليتحلل ممن أساء إليه قبل الحساب ولينشر الفضيلة والمحبة بين الناس ليكفر خطيئته.

(٣٥) بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف، وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم

١–حديث أَبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (ثَلاثَةٌ لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ: رَجُلٌ كَانَ لَهُ فَضْلُ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ فَمَنَعَهُ مِن ابْنِ السَّبيلِ؛ وَرَجُلٌ بايَعَ إِمامَهُ لا يُبايِعُهُ إِلاّ لِدُنْيا، فَإِنْ أَعْطاهُ مِنْها رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا سَخِطَ؛ وَرَجُلٌ أَقامَ سِلْعَتَهُ بَعْدَ الْعَصْرِ فَقالَ وَاللهِ الَّذي لا إِلهَ غَيْرُهُ لَقَدْ أَعْطَيْتُ بِها كَذا وَكَذا، فَصَدَّقَهُ رَجُلٌ ثُمَّ قَرَأَ هذِهِ الآيَةَ (إِنَّ الَّذينَ يَشْتَرونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَنًا قَليلاً).

الشرح:

في هذا الحديث بيان لثلاثة أصناف من الناس ورد فيهم وعيد شديد في الآخرة في ثلاثة أمور بأن لا ينظر إليهم الله نظر رحمة ولا يطهرهم ويعذبهم بعذابه الأليم وذلك لعظم جرمهم واستخفافهم بالله جل جلاله:

الصنف الأول: رجل منع ما زاد عن حاجته وكفايته من الماء عن الشخص العابر المحتاج للماء وإنما كان هذا جرما عظيما لأنه من الشح والبخل المذموم الذي لا يجبل عليه المؤمن والفلاح في ترك الشح كما قال تعالى: (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ). ويتجلى في هذا التصرف الحرمان للغير ومنع مادة الحياة عنه وانتهاك

حرمة الآدمي والماء من الأشياء الثلاثة المشتركة بين عموم الخلق التي تباح لهم جميعا كما ورد في مسند أحمد: (المسلمون شركاء في ثلاث في الماء والكلأ والنار). لكن من سبق إلى الماء فهو أحق به من غيره يأخذ حاجته ثم يدفع الفاضل ويستغني عنه لطالبه من غير عوض أما إذا حازه لرحله فإنه يدخل في ملكه ليس لأحد حق فيه. فيجب على المؤمن أن يبذل ما فضل من الماء للمسافر والمحتاج ولا يأخذ عوضا على ذلك لأنه من الأمور الدنيئة التي تخرم المروءة ولذلك ورد النهي في السنة عن أخذ العوض عن ماء الفحل وعن ثمن الكلب كما ورد في صحيح البخاري.

الصنف الثاني: رجل دخل في بيعة الحاكم الشرعي لا طاعة لله ولا اتباعا لرسوله صلى الله عليه وسلم بل لأجل عرض الدنيا فحسب فهو يريد بعمل الآخرة الدنيا ويسمع ويطيع لأجل مصلحته الشخصية ومنفعته المادية فإن أعطاه الحاكم مالا أظهر له الرضا وأثنى عليه وأطاعه وإن منعه الدنيا تسخط ونكث وإن وجد فرصة غدر به وقد جاء في النصوص التشديد على لزوم طاعة الحاكم في جميع الأحوال والصبر على جور الحاكم مع سؤال الحق وعدم نزع يد الطاعة قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ). قال ابن تيمية: (فمن أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر فأجره على الله ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال فإن أعطوه أطاعهم وإن منعوه عصاهم فماله في الآخرة من خلاق). وإنما شدد في هذا لأنه يفضي إلى الخروج والفتنة وقد بين ابن تيمية أن الحامل على الخروج على الحاكم عند كثير من الخارجين هو طلب الرئاسة والدنيا وهذا أمر مشاهد فكثير من الخلق لا يغضب لانتهاك حرمات الله وإنما يغضب لنقص الدنيا وقد يُلبس هذا ثوب الدين ويتظاهر بالغيرة والغضب الشرعي.

الصنف الثالث: رجل باع سلعته بعد زمان شريف تتنزل الملائكة فيه أقسم الله به فكذب في سعر قيمة السلعة واستعمل اليمين في سبيل التوصل لوسخ الدنيا فهو مستخف باسم الله يحلف بأيمان كاذبة ليثق المشتري به ويطمئن لكلامه وقد ورد الوعيد في اليمين الغموس وشهادة الزور. وهذا التصرف يصدر عمن لم يعظم الله ويعرف قدره واستولى حب الدنيا على قلبه وصار عبدا لها. ثم استشهد النبي صلى الله عليه وسلم

بقوله تعالى: (إِنَّ الَّذينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَليلاً). على تحريم من يعتاض عن عهد الله ويمينه بعرض من الدنيا فهو ثمن قليل مهما كثر لأنه زائل ليس له أثر في الآخرة ويوجب عذاب الله والتقحم في النار والعياذ بالله. وقد استخف كثير من الناس اليوم بحقوق الخلق وترخصوا وتأولوا أكلها بالباطل واستهانوا باليمين الكاذبة وشهادة الزور. والحاصل أن الذنوب الثلاثة المذكورة في الحديث ترجع إلى معنى الشح والغدر والكذب في يمين البيع ولها تعلق أصالة بحقوق الخلق. فينبغي للمؤمن أن يكون معظما لأمر الله ورعا عن حقوق الخلق متنزها عن أكل المكاسب الدنية والمشبوهة ملتزما بالعهود والمواثيق متمسكا بمبادئه لا يحيد عنها ما دامت على الحق موافقة للشرع.

وجاء في رواية أخرى للحديث ذكر للمسبل إزاره وهو يدل على أن ذلك من الكبائر والمراد من جر إزاره خيلاء كما جاء مفسرا في رواية البخاري وإنما شدد فيه الشارع لما فيه من الكبر الذي هو من صفات الخالق فلا يليق بالمخلوق منازعته في ذلك وقد نهى الله عن الاختيال والفخر في قوله تعالى: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ). وذكر أيضا المن في العطية وهو من الكبائر مبطل لثواب الصدقة وهو أن يذكر المتصدق على مسمع الفقير ما صنعه به من المعروف والإحسان على سبيل الامتنان وإنما شدد فيه لما فيه من أذية المسلم وانتهاك كرامته وإشعاره بالإهانة وقد نهى الله عن ذلك بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى). والثالث هو المنفق سلعته بالحلف الكاذب وهو في معنى الكاذب بعد العصر المذكور في الحديث.

(٣٦) بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة

١-حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (مَنْ تَرَدَّى مِنْ

جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيها أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيها أَبَدًا).

٢–حديث ثابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ، وَكانَ مِنْ أَصْحابِ الشَّجَرَةِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (مَنْ حَلَفَ عَلى مِلَّةٍ غَيْرِ الإِسْلامِ فَهُوَ كَما قَالَ، وَلَيْسَ عَلى ابْنِ آدَمَ نَذْرٌ فِيما لا يَمْلِكُ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ فِي الدُّنْيا عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَمَنْ لَعَنَ مُؤْمِنًا فَهُوَ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ قَذَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ).

٣–حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: شَهِدْنا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَيْبَرَ، فَقالَ لِرَجُلٍ مِمَّنْ يَدَّعِي الإِسْلامَ: (هذا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمّا حَضَرَ الْقِتالُ قاتَلَ الرَّجُلُ قِتالاً شَدِيدًا فَأَصابَتْهُ جِراحَةٌ، فَقِيلَ يا رَسُولَ اللهِ الَّذِي قُلْتَ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَإِنَّه قَدْ قاتَلَ الْيَوْمَ قِتالاً شَدِيدًا، وَقَدْ مَاتَ، فَقالَ صلى الله عليه وسلم: إِلى النَّارِ قَالَ فَكادَ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ يَرْتابَ؛ فَبَيْنَما هُمْ عَلى ذلِكَ إِذْ قِيلَ إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ وَلكِنَّ بِهِ جِراحًا شَدِيدًا، فَلَمّا كانَ مِنَ اللَّيْلِ لَمْ يَصْبِرْ عَلى الْجِراحِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ: فَأُخْبِرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِذلِكَ، فَقالَ: اللهُ أَكْبَرُ أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِلالاً فَنادى فِي النَّاسِ: إِنَّه لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَإِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفاجِرِ).

٤–حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْتَقى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمالَ الآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَجُلٌ لا يَدَعُ لَهُمْ شاذَّةً وَلا فاذَّةً إِلاَّ اتَّبَعَها يَضْرِبُها بِسَيْفِهِ، فَقالُوا ما أَجْزَأَ مِنّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَما أَجْزَأَ فُلانٌ؛ فَقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (أَما إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَقالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنا صَاحِبُهُ قَالَ فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّما وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذا أَسْرَعَ أسرع مَعَهُ؛ قَالَ فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَديدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ، وَذُبابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحامَلَ عَلى نَفْسِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ قَالَ: وما ذَاكَ قَالَ: الرَّجُلُ الَّذي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ

مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذلِكَ، فَقُلْتُ: أَنا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ في طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الأَرْضِ، وَذُبابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عِنْدَ ذَلِكَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فيما يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيما يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهْوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ).

٥–حديث جُنْدُبَ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم (كَانَ فيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ فَجَزِعَ، فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ فَما رَقَأَ الدَّمُ حَتّى مَاتَ، قَالَ اللهُ تَعالَى بادَرَنِي عَبْدي بِنَفْسِهِ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ).

الشرح:

هذا الباب في بيان جرم عظيم وكبيرة من كبائر الذنوب ألا وهي قتل المسلم نفسه وإزهاق روحه التي بين جنبيه لأجل جزع أو قلة صبر أو ضيق حال أو تعرض لفتنة وغير ذلك. وقد ورد الوعيد الشديد والعذاب الأكيد على هذه الفعلة الشنيعة قال تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا). ويدخل في حكم الانتحار امتناع المسلم من الأكل والشرب حتى الموت فيحرم ذلك باتفاق أهل العلم كما حكاه الجصاص أما الامتناع عن التداوي حال المرض لا يعتبر انتحارا عند عامة الفقهاء. والمفجر نفسه بحزام ناسف بما يسمى بالعمليات الاستشهادية منتحر وداخل في الوعيد عند المحققين من أهل العلم كشيخنا ابن باز وشيخنا ابن عثيمين لأنه قاصد لقتل نفسه فهو مرتكب للمحظور ونفسه مؤتمن عليها لا يحل له إزهاقها إلا بوجه مأذون فيه شرعا ولم يرد في الشرع ما يدل على إباحة قتل النفس قصدا مطلقا وإنما ورد الإذن في مقاتلة الكفار والإثخان في صفهم كما في قصة البراء رضي الله عنه وفرق ظاهر بين الأمرين في القصد والفعل والغاية لا تبرر الوسيلة ومن رخص في هذا العمل فقد أخطأ في فهم النصوص ووهم في معرفة مقاصد الشارع في الجهاد وفتح على الناس باب شر وفتنة. وقد دل الحديث الأول على عظم العذاب على قاتل نفسه في الآخرة وأن جزائه في

النار من جنس عمله في الدنيا سواء بسواء من باب العدل فيعذب بنفس الطريقة التي قتل نفسه بها فإن كان قتل نفسه برميها من جبل أو مكان عال كان عذابه كذلك بترديه من جبل في النار وإن كان قتل نفسه بسم شربه كان عذابه أيضا بسم يتجرعه في النار وإن كان قتل نفسه بآلة من حديد كام عذابه أيضا بحديدة يطعن بها في بطنه وهكذا الجزاء من جنس العمل. وقوله خالدا مخلدا في النار هذا مؤول عند أهل السنة ليس على ظاهره خرج مخرج الزجر والتخويف وتحقيق مذهب أهل السنة والجماعة أن قاتل نفسه من أهل الإسلام موحد عاص مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته غير خارج من الملة وإن كان مرتكبا لكبيرة خلافا لمذهب الخوارج. ودل الحديث الثاني على تحريم الحلف بغير ملة الإسلام كقوله والله أنه يهودي أو نصراني إن كنت كاذبا لأنه لا يجوز للمسلم تعظيم الكفر وأهله وإنما الحلف حق خاص بالله سبحانه لا يعظم أحد سواه وقد ورد في الصحيحين: (من حلف منكم فقال في حلفه باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله ومن قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدق). فمن حلف بالكفر لم تنعقد يمينه عند جمهور العلماء وإنما يجب عليه التوبة وأن يقول كلمة التوحيد وقوله صلى الله عليه وسلم: (فهو كما قال) لا يوجب الكفر عند علماء أهل السنة وإنما هو على سبيل الزجر والتخويف. ودل الحديث على بطلان النذر في شيئ لا يملكه العبد كأن يقول إن شفى الله مريضي تصدقت بشاة فلان أو مال فلان فنذره لا غ لا ينعقد بذلك لأنه لا يحق له التصرف بمال الغير. ودل أيضا على تحريم لعن المؤمن وهو كقتله في التحريم والإثم. وجعل النبي صلى الله عليه وسلم تكفير المسلم كقتله لأن الكفر سببا في استباحة دمه وقتله وهذا يدل على خطورة تكفير المسلم ولعنه ويدخل في معناه قذفه بالزنا والعظائم وقد تساهل بعض الناس في إطلاق لسانه في أعراض المسلمين وهذا يدل على ضعف الإيمان وخبث الطوية وقلة الورع في المحارم فالواجب على المسلم الحذر الشديد من هذا المسلك المشين. وفي الحديث الثالث بيان لقصة ذلك الرجل الذي كان ظاهر عمله الصلاح والخير وهو في حقيقة الأمر وداخليته الشر والفساد وقد اغتر بظاهره الصحابة رضي الله عنهم وغبطوه ثم بين لهم الرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة حاله وأنه من أهل النار يعني يدخل النار ويستوجبها لجرمه ثم لما اشتدت

الجراحة في بدنه جزع ولم يصبر فقتل نفسه وختم له بسوء والعياذ بالله. وهذه القصة فيها صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه أخبر بالغيب فوقع كما قال. وفيه أن المؤمن يجب عليه أن يوقن بخبر الله ورسوله ولا يرتاب أبدا ولو لم يظهر له معنى الخبر وتأويله بل عليه أن يسلم الأمر لله ويصدقه ولو لم يطق ذلك لأن عقله لا يحيط وصفا ولا معرفة كنه الغيب الذي يخبر الله به وأكمل المؤمنين إيمانا أعظمهم صدقا ولذلك كان أبو بكر يدعى الصديق لعظم تصديقه ومما يؤسف له اليوم ضعف التصديق عند طائفة من المسلمين لتأثرهم بالماديات. وفيه أن العبرة بخواتيم العمل وهذا يوجب على المؤمن الحذر من سوء الخاتمة ولكن جرى عدل الله ولطفه أنه لا يخيب من كان صادقا في إيمانه وأن يخذل من كانت سريرته منطوية على الشك والنفاق. وفيه أن شرط دخول العبد الجنة أن يكون مسلما بدين محمد مصدقا بشرعه مؤمنا بوحيه وهذا يدل على أن جميع الكفار بصنوفهم وأصحاب البدع المكفرة الجنة عليهم حرام قال تعالى: (مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ). فكل من مات على الكفر فالجنة عليه حرام بنص القرآن والسنة والإجماع خلافا للزنادقة الذين يصححون دين متأخري أهل الكتاب. وفيه أن من حكمة الله تسخير الرجل المنافق والفاسق لنصرة الدين فلنا عمله الظاهر ونيته وسوء قصده عليه يحاسبه ربه يوم القيامة وهذا يدل على أن المؤمن إذا دعي لعمل صالح أجاب ولو كان القائم عليه فيه شبهة أو ريبة أو يعرف بشر فلا حرج عليه في المشاركة عند ترجح المصلحة وانتفاء المفسدة ولذلك قرر الأئمة مشروعية القتال وإقامة الجمعة مع إمام الجور وصلى بعض الصحابة رضي الله عنهم خلف الخوارج وهذا يبين وسطية منهج أهل السنة خلافا للغلاة. وفي الحديث الرابع تفصيل أتم لقصة الرجل الذي قتل نفسه وفيه دليل على أن الانسان قد يكون يعمل الصالحات في حياته ويثني عليه الناس ويعجبون بعمله ثم والعياذ بالله ينتكس ويعمل السيئات التي توجب له دخول الجنة وهذا ظاهره مشكل ولكن قوله فيما يبدو للناس يزيل الإشكال ويبين بأن المراد أن هذا الرجل كان يرائي بعمله ونيته فاسدة في الداخل ويظهر عمله لغرض من الدنيا ثم غلب عليه سوء القصد فختم له

بسوء فيدخل النار وعكس ذلك رجل كان عاصيا يجاهر بالذنوب لا يطيع الله يذمه الناس ويحذروه ولكن في قلبه نية صالحة تشعره بالندم والخوف من الله ويحدث نفسه بالتوبة فتغلب هذه النية الصالحة على قلبه عند موته فيختم له بعمل صالح فيدخل الجنة أما من كان مؤمنا وعمل الصالحات طاعة لله إيمانا واحتسابا فهذا يختم له بخير ويثبته الله عند موته إنفاذا لوعده ورحمة بعبده المؤمن ولا يظلم ربك أحدا قال تعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ). وفي الحديث الخامس ذكر لقصة رجل كانت في يده قرحة واشتد عليه الألم ثم أخذ سكينا فقطع موضع القرحة قصدا للموت لم يرد المداواة فنزف دمه حتى مات فحرم الله عليه الجنة وأدخله النار لأنه تجاوز حد الله وتسبب في قتل نفسه واستعجل الموت وترك ما يجب عليه من الصبر ولم يوقن بالثواب المترتب على صبره. والتحريم المذكور في الحديث ليس على سبيل التأبيد عند أهل السنة وإنما المراد تحريم مؤقت حتى يطهر من عمله ويكون صالحا لدخول الجنة. وفيه دليل على تحريم تعاطي العبد للأسباب المفضية للموت كالسرعة الجنونية والتفحيط وتعاطي المخدرات والمخاطرة بالنفس في الألعاب الرياضية الضارة. وقد كثر في هذا الزمان الانتحار في المسلمين لضعف الوازع الديني وقلة البصيرة وكثرة الجهل والاستخفاف بغضب الرب وعذابه والله المستعان أما الكفار فالانتحار عندهم ظاهرة مشهورة منذ القدم لخوائهم الروحي وإنكارهم البعث وفساد فطرتهم. فينبغي على المسلم أن يعظم حرمة هذه النفس وأن يوقن بعظم العقوبة على قتل النفس ولا يرتكب هذه الجريمة مهما بلغت به الأحوال وضاقت عليه الأسباب وتعرض للفتنة والأذى وعليه أن يصبر ويرضى بالقدر ويحتسب الثواب ويسلم أمره لله ويعلم أن البلاء طريق إلى الجنة ويعلم إنما هي أيام قلائل ويلقى ربه ويختم له بخير ويفضي إلى ما قدم من العمل.

(٣٧) غلظ تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون

١-حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: (افْتَتَحْنَا خَيْبَرَ وَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا وَلا فِضَّةً، إِنَّما غَنِمْنا الْبَقَرَ وَالإِبِلَ وَالْمَتاعَ وَالْحَوائِطَ، ثُمَّ انْصَرَفْنا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلى وادي الْقُرى وَمَعَهُ عَبْدٌ لَهُ يُقالُ لَهُ مِدْعَمٌ، أَهْداهُ لَهُ أَحَدُ بَني الضِّبابِ؛ فَبَيْنَما هُوَ يَحُطُّ رَحْلَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذْ جاءَهُ سَهْمٌ عائِرٌ حَتّى أَصابَ ذَلِكَ الْعَبْدَ فَقالَ النَّاسُ: هَنيئًا لَهُ الشَّهادَةُ فَقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: بَلى وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتي أَصابَها يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغانِمِ لَمْ تُصِبْها الْمَقاسِمُ لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نارًا فَجاءَ رَجُلٌ، حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، بِشِراكٍ أَوْ بِشِراكَيْنِ، فَقالَ: هذا شَيْءٌ كُنْتُ أَصَبْتُهُ فَقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: شِراكٌ أَوْ شِرَاكانِ مِنْ نارٍ).

الشرح:

هذا الحديث دليل على تحريم الغلول وأنه من الكبائر العظيمة التي توجب دخول الغال النار لأنه من أكل الأموال الناس بالباطل والشارع قد شدد في عقوبة حقوق الخلق وأوجب فيها العذاب في الآخرة ما لم يؤدها لأصحابها في الدنيا أو يتحلل منهم قبل أن لا يكون درهم ودينار يوم الحساب فهذا الباب مبناه على المشاحة ولا يدخل فيه المسامحة من قبل الرب خلافا للذنوب التي بين العبد وربه مبناها على المسامحة والعفو. والغلول المنهي عنه هو أن يحوز المجاهد شيئا من أموال الغنائم التي لم يرخص فيها قبل قسمتها وإنما شدد فيها لأنه استولى على مال عام يتعذر ضبطه ويخفى حاله غالبا ولا يطلع عليه إلا الله. فالغلول الخيانة في المغنم وكل من خان في مال خفية فقد غل قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). قال ابن عباس: (إن هذه الآية نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض الناس أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم). أما الطعام اليسير الذي يصيبه المجاهد في القتال من جوز وتمر وبيض ونحوه فيجوز له أكله لما في البخاري عن ابن عمر رضي الله عنها: (كنا نصيب في مغازينا العسل والعنب فنأكله ولا نرفعه). وهذا قول أكثر أهل العلم. وفي قصة

الحديث بين أبو هريرة رضي الله عنه أنهم أصابوا المواشي والمتاع في غزوة خيبر ولم يكن في غنائمهم الذهب والفضة ثم انصرفوا إلى وادي القرى وبينما مدعم غلام الرسول صلى الله عليه وسلم مشغولا بإنزال المتاع جاءه سهم خاطئ فقتله فأثنى عليه الناس خيرا وهذا هو الأصل أن الناس يحكمون على الشخص بظاهر حاله لأنهم شهود الله في أرضه ثم بين لهم الرسول صلى الله عليه وسلم أنه مرتكب لكبيرة توجب له دخول النار وهو أنه استولى على لباس في غزوة خيبر قبل القسمة وهذا فيه دليل على أن التحريم يكون بشرط الأخذ قبل وقوع القسمة على الغنيمة. وقوله صلى الله عليه وسلم: (شراك أو شراكان من نار). الشراك هو سير النعل وفيه دليل على تحريم اليسير من الغلول وعدم التسامح فيه وهذا عام في كل مال محرم لا يحل شيء منه ولو كان يسيرا. وإن تاب الغال قبل القسمة وجب عليه أن يرد ما غله كاملا قال ابن المنذر: (أجمعوا على أن للغال أن يعيد ما غل قبل القسمة). أما بعد القسمة فإن وقع ما غله في ملكه فليس عليه أن يتصدق به وإن لم يكن في ملكه ليس عليه أن يتصدق به لأنه لا يملك التصرف به ويرده كاملا للإمام كالمال الضائع وهذا مذهب الشافعي وذهب الجمهور إلى دفع خمسه للإمام والباقي يتصدق به عن الجيش وهذا قضاء معاوية رضي الله عنه. واختلفوا في تحريق مال الغال لما ورد في سنن أبي داود والصحيح أن التحريق ليس مشروعا لأن الحديث ضعيف لا يصح الاحتجاج به ومخالف للمحفوظ في الصحاح قال البخاري: (قد روي في غير حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في الغال ولم يأمر بحرق متاعه). ولأن الشارع نهى عن إضاعة المال وإتلافه وهذا مذهب الجمهور ويجتهد الإمام في عقوبته من باب التعزير لأن الشارع لم يحدد عقوبته. وفي هذا الحديث دليل على عظم خطورة الغصب والاستيلاء على أموال المسلمين العامة ولو كان المرء ظاهره الصلاح ويؤدي الفرائض لأن حقيقة التقوى اجتناب المكاسب المحرمة ولو كان العمل الصالح يسيرا وليس كما يظن كثير من الناس اليوم أن التقوى هو الاستكثار من الصالحات مع التساهل في أكل أموال الناس بالباطل وتضييع حقوق الغير. ويدخل في معنى الغلول المحرم قبول المسئول في ولاية وقضاء وإدارة ونحوه الهدايا من الناس واستباحتها لنفسه وقد أهديت له لأجل رئاسته والتزلف له ليحابيهم ويؤثرهم على

الغير وقد ورد في مسند أحمد : (هدايا العمال غلول). وورد في صحيح البخاري إنكار النبي صلى الله عليه وسلم على ابن اللتبية حينما استعمله فقبل هدايا الناس لنفسه. ومثله في الوزر من يتسلط على المال العام ويستبيحه لنفسه بتأويلات باطلة ومعاذير فاسدة نسال الله السلامة لنا وللمسلمين والكفاية بحلاله عن حرامه والغنى بفضل الله عما سواه.

(٣٨) هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية

١-حديث ابْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه قَالَ: (قَالَ رَجُلٌ يا رَسُولَ اللهِ أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنا فِي الْجاهِلِيَّةِ قَالَ: مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَساءَ فِي الإِسْلامِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ).

الشرح:

بين النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث جوابا عن سؤال حكم أعمال السوء التي يعملها الإنسان وقت كفره أنها على حالتين بعد إسلامه على حسب عمله:

الحالة الأولى: أن يكون حسن الإسلام بأن يتمسك بالشرع ويستقيم عليه ظاهرا وباطنا فيؤدي الفرائض والسنن ويترك المحرمات خاصة التي كان يعملها سابقا والعبرة بالغالب فهذا يكفر الله سيئاته التي اجترحها حال كفره ولو عظمت ولا يحاسب عليها يوم القيامة لأنه أهل للتجاوز والغفران والحسنات تمحو السيئات. كما في قوله تعالى: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ). ومن فضل الله يبدل الله سيئاته حسنات يوم القيامة كما قال تعالى: (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا). بل وقد ورد في السنة ما يدل على

أنه يثاب أيضا على الحسنات التي فعلها حال كفره وقد نص أحمد بن حنبل على ذلك وهذا من لطف الله بعباده وعظيم كرمه ومنه.

الحالة الثانية: أن يكون سيئ الإسلام بأن يفرط في الفرائض ويسرف على نفسه بالذنوب والعظائم ويتجاوز في حقوق العباد ويستخف بشرع الله فهذا عياذا بالله يأثم ويكون عليه وزر الذنوب التي فعلها قبل الإسلام وبعد الإسلام ويحاسب عليها يوم القيامة ولا تغفر له الذنوب السابقة لأنه ليس أهلا للتجاوز. وفي مسند أحمد: (إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث).

أما ذنب الكفر فيكفره الدخول في الإسلام لأن حسنة التوحيد تكفر سيئة الكفر والشرك وما ورد في النصوص أن الإسلام يهدم ما قبله فمحمول على الإسلام الحسن والاستقامة التامة جمعا بين النصوص كما نبه المحقق ابن رجب الحنبلي على ذلك. ومما يؤسف له أنك ترى طائفة من المسلمين الجدد لا يحسن إسلامهم ولا يأخذون الدين بقوة فيستمرون على شرب الخمر وأكل الربا والزنا ولبس الذهب ونحوه ويتهاونون في أداء الصلاة وأركان الدين مما يكون سببا في ضعف دينهم أو انتكاستهم بالكلية وتمثيلهم الدين بصورة سيئة. وفي الحديث دليل على أن الكافر إذا اكتسب مالا حراما ثم أسلم وحسن إسلامه لم يؤاخذ بذلك دنيا وآخرة وكان ما في يده حلال لا يلزمه التخلص منه. وفيه إطلاق الجاهلية على زمن الكفر أما زمن الإسلام وغلبته فلا يصح إطلاق الجاهلية عليه على سبيل العموم كما يفعله بعض المفكرين في زماننا لأن وصف المجتمع المسلم بالجاهلية يقتضي الكفر وهذا جار على أصول الخوارج مخالف لمذهب أهل السنة وإنما يقيد فيقال للمخالفة هذا من عمل الجاهلية أو للرجل فيك شعبة من الجاهلية كما عبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك في مناسبات متعددة. وينبغي على الدعاة أن يبينوا هذه المسألة للكفار ليتضح لهم سماحة الإسلام ويرغبوا في الدخول فيه لأن بعض الكفار يعوقه عن الدخول اعتقاده هلاكه لكثرة ذنوبه وإسرافه على نفسه فالمشروع للداعي التيسير والتبشير لمن رغب في الدخول وعدم التشديد عليه.

(٣٩) كون الإِسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج

١ –حديث ابْنِ عَبَّاسٍ (أَنَّ ناسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كانُوا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَروا، وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم فقالُوا: إِنَّ الَّذي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ لَوْ تُخْبِرُنا أَنَّ لِما عَمِلْنا كَفَّارَةً؛ فَنَزَلَ (وَالَّذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ)، وَنَزَلَ: (قُلْ يا عِبادِيَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ).

الشرح:

في هذا الحديث بيان أن الإسلام يجب ما كان قبله من الكبائر والذنوب لأن حقيقته التوبة من عبادة الأوثان واستحلال المعاصي والدخول في عبادة الله وطاعته والتزام شرعه وهذه الحسنة العظيمة تزيل وتلغي سيئة الشرك وما كان دونه من الجرم والإثم من باب أولى ولكن هذا مقيد بأن يكون إسلامه حسنا مؤديا للفرائض كافا عن المحرمات مقبلا على الله بكليته كما جاء مفصلا في السنة الصحيحة. وقد ورد في النصوص المحفوظة أن أعمالا جليلة أخرى تكفر الذنوب كالهجرة إلى الله وقصد حج بيت الله وفعل الفرائض وصوم رمضان. ولما استشكل بعض المشركين لما أسلموا واهتدوا عما عملوه من العظائم هل لذلك كفارة خاصة كان الجواب أن إسلامهم وكفهم عن الذنوب عن صدق وإخلاص وإرادة ما عند الله كاف في تكفير السيئات التي ازدلفوها حال كفرهم ونزلت من الآيات ما تؤيد هذا المعنى ولا يلزمهم فعل شيء آخر. فإذا أسلم الكافر اكتفي بإسلامه ولم يطالب بأداء كفارة مهما فعل من الجرائم حال كفره لأن الإسلام يمح ما وقع قبله من الذنوب والمعاصي وهذا فيه تيسير وترغيب للكفار في الدخول في هذا الدين العظيم الذي يركز على أعمال الحاضر والمستقبل وينسى للمذنب أعمال الماضي. وقد دلت الآية الأولى مع ما بعدها على أن من تاب من الشرك وفعل الكبائر طاعة لله محا الله سيئاته الماضية وجعل مكانها حسنات كما قال

سعيد بن المسيب: (تصير سيئاتهم حسنات لهم يوم القيامة). ودلت الآية الثانية على أن من تاب لله حقا ونصح في توبته غفر الله جميع ذنوبه مهما عظمت وكثرت لأن الله يقبل التوبة ويفرح بها فرحمته واسعة فلا يقنط ولا يجزع من رحمة الله وليكن عظيم الرجاء بالله قال قتادة السدوسي: (ذكر لنا أن أناسا أصابوا ذنوبا عظاما في الجاهلية فلما جاء الإسلام أشفقوا أن لا يتاب عليهم فدعاهم الله بهذه الآية: (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)). فليبشر كل من دخل الإسلام بالثواب العظيم والمغفرة التامة عن كل ما صدر منه في كفره إذا صدق مع الله واحتسب الثواب وآمن بوعد الله فهنيئا له حياة كريمة وسعادة دائمة في حياته ومماته.

(٤٠) حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده

١-حديث حَكيِم بْنِ حِزامٍ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ يا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ أَشْياءَ كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِها فِي الْجاهِلِيَّةِ مِنْ صَدَقَةٍ أَوْ عَتاقَةٍ وَصِلَةِ رَحِمٍ، فَهَلْ فيها مِنْ أَجْرٍ فَقالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (أَسْلَمْتَ عَلى ما سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ).

الشرح:

في هذا الحديث بيان حكم الأعمال الصالحة التي يعملها الكافر أثناء كفره إذا أسلم هل تبطل بالكلية في الآخرة بناء على أن شرط قبول العمل وثبوت الثواب أن يكون خالصا لله وحده ولذلك استشكل الصحابي حكيم رضي الله عنه ما عمله وقت كفره من الصدقة على الفقراء وعتق الرقيق وصلة الرحم وقد كان سيدا شريفا في قومه مكثرا من البر والإحسان فبين له النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يقبل تلكم الأعمال إذا دخل في دين الإسلام ويكتب له ثوابها يوم القيامة وهذا من كمال رحمة الله ولطفه بالعباد وتجاوزه عنهم ولعل الحكمة في ذلك والله أعلم ترغيب الكافر في الدخول في

دين الرحمة والعدل الإسلام. وأما من تأول الحديث ممن تأثر بطريقة أهل الكلام وصرفه عن ظاهره وفسره بالطباع الجميلة أو الثناء الحسن أو بغيره فكلامه باطل مخالف لدلالة النصوص ومذهب السلف وقد ورد جملة من الدلائل تشهد لهذا الحكم والله واسع الفضل والعطاء يمن على من يشاء من عباده. والذي يظهر أن هذا الحكم خاص بأعمال الإحسان من صدقة وصلة وعتق وصلح ونحوه أما العبادات المحضة التي يتقرب فيها الكافر لمعبوده من صلاة وذبح ودعاء فهي باطلة من أصلها ولا يثاب عليها ولو أسلم بعد ذلك ولا تجزئه بل يطالب بما وجب عليه من جنسها إذا أسلم لأنها صرفت في الأصل لغير الله وتمحض فيها القصد والتوجه لغير الله فكل عمل قصد به غير الله فباطل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه).

رواه مسلم. وأما الأعمال التي يفعلها الكافر من أعمال الصلة والإحسان والبر ويموت كافرا فإنه يجازى بها في الدنيا فيوسع له في ماله وولده وسائر أمره ولا تكون له حسنات يوم القيامة بل تذهب هباء منثورا وهذا هو مقتضى العدل قال تعالى: (وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا). فالأعمال التي تعب فيها الكافر ورجا أن تنفعه في الآخرة وعلق آمالا عليها يكتشف أنها ضلالا مضمحلا كذرات الغبار الذي ترى في ضوء الشمس لا تنفع صاحبها بشيء لأنها فاقدة للإخلاص لله ولذلك قالت عائشة :قلت: يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه قال: (لا ينفعه إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين). رواه مسلم. ولا يشرع للمسلم مدح الكفار والثناء على أعمالهم الحسنة لأنها غير مقبولة عند الله ولا يثابون عليها في الآخرة لأن سيئة الكفر تمحق سائر الحسنات كما أن حسنة التوحيد تمحق سائر السيئات بعد استيفاء الحساب.

(٤١) صدق الإيمان وإِخلاصه

١–حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: لَمّا نَزَلَتْ (الَّذينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ) شَقَّ ذَلِكَ عَلى الْمُسْلِمينَ؛ فَقالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنا لاَ يَظْلِمُ نَفْسَهُ قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ، إِنَّما هُوَ الشِّرْكُ؛ أَلَمْ تَسْمَعُوا ما قَالَ لُقْمَانُ لاِبْنِهِ وَهوَ يَعِظهُ (يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ).

الشرح:

في الحديث بيان للإيمان الصادق الخالي من القوادح الذي ينجي صاحبه يوم القيامة. ولما نزلت هذه الآية التي ذكر الله فيها وصف المؤمنين الذين لم يخلطوا إيمانهم بظلم أشكل فهم الآية على الصحابة رضي الله عنهم ووجدوا في تطبيقها والعمل فيها مشقة ظاهرة لأنه لا أحد يخلو من ظلم نفسه فسألوا رسول الله فبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الظلم المذكور في الآية ليس الظلم المعهود لهم المتبادر لأفهامهم وإنما المراد به هو الشرك بالله غيره من ملك أو نبي أو شجر أو صنم ونحوه واستدل صلى الله عليه وسلم بقول لقمان في موعظة ابنه ووصفه الشرك بالظلم العظيم وإنما كان الشرك ظلما لأنه صرف العبادة المستحقة لله لغير الله فحقيقته وضع العبادة في غير موضعها وهذا هو أصل الظلم وكان عظيما لأن أعظم الظلم ما كان في حق الله.

فالإيمان الصادق والتوحيد الخالص ما خلا من الشرك الأكبر خلافا لمشركي أهل الكتاب الذين يؤمنون بالله ولكن يشركون معه الملائكة والأنبياء وكذلك مشركو العرب يؤمنون بالله ويشركون معه الأصنام في نفس الوقت يتقربون إليها بأنواع القرب وكذلك سائر أصناف الكفار عندهم نوع إيمان بالله ولكنه مخلوط بالشرك فلا ينفعهم ذلك.

والتوحيد الخالص أيضا ما خلا من الشرك الأصغر من رياء وحلف بغير الله وتعلق بغير الله من الأوهام. ومن حقق التوحيد وأخلص إيمانه كان جزاؤه الأمن والهداية التامة في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: (أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ). وفي الحديث دليل على أن القرآن يفسر بعضه بعضا فما أجمل وأطلق وعمم في آية يبينه ويقيده ويخصصه آية أخرى إن كانت صالحة لذلك وقد سلك الصحابة هذا المنهج في التفسير وجعلوا

التفسير بالقرآن أول الطرق قال ابن تيمية: (فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له). وفيه دليل على أهمية تربية الولد على العناية بإخلاص التوحيد وتجنب الشرك بجميع صوره وترسيخ مبادئ العقيدة في نفس الطفل بأسلوب مباشر ولغة واضحة خالية من التعقيد وهذا هو منهج الرسل صلوات الله عليهم خلافا للجهلة الذين ينكرون هذا المبدأ ويعيبونه في مناهج التعليم والطفل إذا رُسِّخ في قلبه العقيدة وحب العبادة في الصغر ثبت على الإسلام في الكبر ولم يؤثر ما يطرأ عليه من الشبهات والشهوات. وفي الحديث دليل على أن المؤمن مهما كان معرض للخطأ والتقصير في جنب الله لأن الصحابة رضي الله عنهم أقروا بظلم أنفسهم وهذه هي الطبيعة البشرية لكن الشأن في المعالجة والتطهير وكثرة الإنابة.

والحاصل أن الإيمان ثلاثة أقسام باعتبار إخلاصه وأثره:

١- إيمان تام خال من الشرك الأكبر والأصغر والكبائر يتحقق فيه الأمن والهداية التامة في الدنيا والآخرة وهذا حال الكمل من الموحدين من الرسل وخاصتهم وهم المعنيون في قوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ).

٢- إيمان ناقص خال من الشرك الأكبر مختلط بالشرك الأصغر والكبائر يتحقق فيه الأمن والهداية الناقصة وصاحبه متعرض للوعيد في الآخرة ولكنه لا يخلد في النار وهذا هو حال المقصرين من الموحدين وفي هؤلاء وردت نصوص الشفاعة المتواترة عند أهل السنة قال تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ). قال الضحاك بن مزاحم: (يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة فهم الذين استثنى لهم).

٣- إيمان فاسد مختلط بالشرك الأكبر لا يكون صاحبه من المؤمنين في الدنيا ولا ينفعه في الآخرة مخلد في النار ولا يدخل الجنة وهذا حال سائر المشركين من أهل الكتاب والوثنيين ومشركي هذه الأمة قال تعالى: (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ

وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ).

(٤٢) تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر

١-حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي ما حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُها ما لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ).

الشرح:

في هذا الحديث بيان أن الله عز وجل سبحانه لا يؤاخذ العبد على ما يقع في قلبه من الخطرات والوساوس والأفكار السيئة من أماني السوء وحديث النفس بالشهوات والشبهات فلا يجري عليه حساب ولا عقاب ولا ذم بهذه الأمور لأنها عارضة غير مستقرة ولأن قلب ابن آدم ضعيف يتقلب في الليل والنهار ولأن ابن آدم لا يستطيع غالبا دفع الوساوس والخطرات عن قلبه لكثرة المؤثرات فكانت رحمة الله ولطفه تقتضي المسامحة والتجاوز عن هذه الأمور بشرط أن لا يسترسل الإنسان ورائها ولذلك يؤاخذ الله بها في حالتين:

الأولى: أن يتكلم بهذه الخطرات فيحدث الناس بها فحينئذ تكون هما ويصحبها عمل اللسان فيحاسب بها.

الثانية: أن يعمل بهذه الخطرات السيئة فتتحول من أفكار قلبية إلى عمل في الواقع فيحاسب بها جزاء عمله بالسوء واقترافه الذنب.

أما ما يقع غالبا من تفكير سيئ وأمنية خبيثة وداع إلى الهوى بسبب الشيطان والنفس ويكون عارضا فلا يضر المؤمن ولا يلام على ذلك وينبغي له أن يقطع هذه الخطرات ولا يسترسل معها ويستعيذ بالله من الشيطان ويذكر الله ويقبل على العمل الصالح وبذلك

أرشد الله في قوله تعالى: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). وفسر السديّ نزغ الشيطان بالوسوسة وحديث النفس.

(٤٣) إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب

١- حديث أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (إِذا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُها تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثالِها، إِلى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُها تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِها).

٢- حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فِيما يَرْوي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قالَ: (قَالَ إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كَتَبَها اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِها فَعَمِلَها كَتَبَها اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَناتٍ، إِلى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ، إِلى أَضْعافٍ كَثيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِها فَعَمِلَها كَتَبَها اللهُ لَهُ سَيِّئَةً واحِدَةً).

الشرح:

في هذين الحديثين بيان حكم الهم بالحسنة والسيئة وأحوال ذلك. والفكرة والخاطرة إذا استقرت في القلب وتحرك القلب بها وعزم على العمل بها صارت هما حينئذ وترتب عليها الثواب والعقاب لأن الهم عمل القلب استقرت النية على فعله والإنسان إما أن يهم بفعل الحسنة وإما أن يهم بفعل السيئة.

فإن هم بفعل الحسنة فله حالتان:

الأولى: أن يعمل بها في جوارحه من كلام باللسان أو غيره فتكتب له حينئذ عشر حسنات لأن الحسنة تضاعف عشر مرات كما قال تعالى: (مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا). وقد يضاعفها الله أكثر من ذلك إلى سبعمائة ضعف كثواب النفقة في سبيل الله قال تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ

سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ). والصوم ليس له حد في ثوابه لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله عز وجل إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه ولخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك). وتختلف المضاعفة في الحسنات بحسب اعتبار الزمان والمكان والحاجة وما يقوم في قلب الفاعل من الإخلاص واليقين وسلامته من الموانع والناس يتفاوتون في هذا تفاوتا عظيما وفضل الله واسع يمن به على من يشاء من عباده.

الثانية: أن لا يعمل بالحسنة بجوارحه فحينئذ يؤجر على همه حسنة واحدة لأن قلبه تحرك بالخير وهذا يدل على صلاحه.

وإن هم بفعل السيئة فله حالتان:

الأولى: أن يعمل بها في جوارحه من كلام باللسان أو غيره فتكتب له حينئذ سيئة واحدة ولا يضاعفها الله عليه من باب العدل قال تعالى: (وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ). والسيئة لا تضاعف مطلقا من حيث العدد في سائر الذنوب ولكن ورد أنها تضاعف من حيث الكيفية في الزمن والمكان الفاضل والفعلة الشنيعة كما قال تعالى: (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ). وما ورد في السنة في بعض الذنوب العظيمة. واختار بعض السلف أنها تضاعف في مكة كالحسنات وفيه نظر ولا يصح فيه حديث. والحاصل أن السيئات تعظم في أحوال خاصة فهي دركات متفاوتة يتفاوت فيها الناس.

الثانية: أن يترك العمل بها ويقتصر على الهم فحينئذ يكتب له حسنة واحدة لأنه ترك العمل بالسوء وهذا عمل صالح والله يحب العمل الصالح لكن هذا محمول على من ترك فعل السيئة خوفا من الله وطاعة لله ويفسره بذلك حديث أبي هريرة: (إنما تركها من جرائي). يعني من أجلي. أما من ترك فعل الذنب رياء من أجل الناس أو تركه لمانع يمنعه من القيام بالمعصية كعجز ونحوه وهو يشتهيه ويحدث نفسه به ويترقب الفرصة لفعله

كمن عزم على السرقة في وقت ثم تركها خوفا من الشُرط أو غلبه القدر كالمقتول الذي يريد قتل صاحبه كما ورد في الحديث فهذا لا يؤجر أبدا لأن تركه ليس طاعة لله بل يكتب له سيئة لأن قلبه قد تحرك بها وهو عازم على فعل السوء وإنما الأعمال بالنيات. وأما إذا كان القلب منعقدا على عمل مستقل بذاته كالشك والنفاق والعجب والحسد وسوء الظن ونحوه فهذا يؤاخذ به الإنسان ويترتب عليه العقاب والملامة شرعا. واعلم أنه أحيانا يقوم في القلب من العمل وسوء القصد ما يكون أشد جرما وإثما من بعض أعمال الجوارح وكثير من الخلق غافل عن هذا المقام فليحذر المؤمن من عظائم القلوب وسيئاته. وفي الحديث كمال فضل رحمة الله وجوده وعدله مع العباد.

(٤٤) الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها

١- حديث أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (يَأْتِي الشَّيْطانُ أَحدَكُمْ فَيقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذا مَنْ خَلَقَ كَذا حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ فَإِذا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ).

٢- حديث أَنَسِ بْنِ مالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (لَنْ يَبْرَحَ النَّاسُ يَتَساءَلُونَ حَتّى يَقُولوا: هذا اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ).

الشرح:

في هذين الحديثين بيان خطر الوساوس الشيطانية التي يلقيها الشيطان في روع المؤمن. والوسوسة هي كل فكرة خبيثة تكون خاطرة لا يستقر عليها القلب ينفر منها قلب المؤمن وينزعج وتسبب له قلقا وتكون متوجهة للتشكيك في وجود الله أو كمال قدرته وعلمه أو شيئا من صفاته الحسنى أو سوء ظن بالله وأفعاله ونصرته لأهل الحق. والشيطان وسواس يهجم على المؤمن ويحاول إفساد دينه وعقيدته وانتكاسته عن الحق

كما قال تعالى: (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ). والشيطان يتدرج مع المؤمن في سلسلة من الأفكار يبتدأ معه بالفكرة السهلة السائغة فيخاطبه من خلق هذا فإذا استجاب لنداءاته المتكررة انتقل به حتى يسأله من خلق الله سبحانه وتعالى ليشككه في أصل دينه. والشيطان يتسلط على المؤمن أما الكافر والمنافق فلا حاجة للوسوسة فيه لأنه استولى عليه وأفسد دينه فقد جاء الصحابة لابن عباس رضي الله عنه وقالوا: إن اليهود يعيروننا بقولهم نخشع في صلاتنا ولا تخشعون في صلاتكم. فقال ابن عباس: (وماذا يفعل الشيطان بالبيت الخرب). والشيطان يهجم على المؤمن في حالات ضعفه من شدة الفرح والحزن والغضب كما نبه على ذلك السلف قال المعتمر بن سليمان عن أبيه: (ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينفث في قلب بن آدم عند الحزن وعند الفرح فإذا ذكر الله خنس). ويتمكن من المؤمن حال الغفلة قال ابن عباس رضي الله عنه: (الشيطان جاثم على قلب بن آدم فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله خنس). ولما اشتكى الصحابة لرسول الله ما يجدونه من الوسواس والتشكيك في أصل الاعتقاد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بأنه صريح الإيمان ومراده أن القلب الذي ينكر هذه الوساوس وينزعج منها يدل على كمال إيمانه وصفائه لأنه قلب سليم يمرضه ويؤلمه ما يرد عليه من خواطر الشك والنفاق أما القلب المريض العليل لا يضره ذلك ومن رحمة الله أن الله لا يحاسب المؤمن على ما يقع في قلبه من الوساوس. ومن وجد شيئا من هذه الوساوس فليتعوذ بالله السميع العليم ويلتجأ إليه من شر الشيطان ووساوسه كما أرشد الله عز وجل بقوله تعالى: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). وأرشد النبي صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة كما في الحديث الأول وأرشد كذلك بالاستعاذة والتفل ثلاثا يسارا إن وسوس داخل الصلاة كما ورد في حديث عثمان بن أبي العاص قال: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذاك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً).

قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني. رواه مسلم. ثم ليقطع التفكير فورا عن هذه الأفكار الخبيثة ولا يسترسل معها أبدا كما أرشده النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ثم ليشغل باله

وفكره بما يفيده وينفعه من علم أو عبادة أو سلوك أو تجارة أو إحسان إلى الخلق المهم لا يجعل قلبه فارغا نهبا للشياطين تتلاعب به ومن ضعف واسترسل وراء هذه الأفكار تمكن من قلبه الفساد وغلب على تفكيره الشك والنفاق وأصغى لكلام الملحدين والمشككين وأفضى ذلك به إلى الردة والانتكاسة والعياذ بالله.

(٤٥) وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار

١-حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (مَنْ حَلَفَ يَمِينِ صَبْرٍ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبانُ فَأَنْزَلَ اللهُ تَصْديقَ ذَلِكَ (إِنَّ الَّذينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَليلاً أُولئِكَ لاَ خَلاقَ لَهُمْ في الآخِرَةِ) إلى آخر الآية؛ قَالَ فَدَخَلَ الأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ وَقَالَ: ما يُحَدِّثُكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمنِ قُلْنا: كَذا وَكَذا، قَالَ فِيَّ أُنْزِلَتْ: كانَتْ لي بِئْرٌ في أَرْضِ ابْنِ عَمٍّ لي، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: بَيِّنَتُكَ أَوْ يَمِينُهُ؛ فَقُلْتُ: إِذًا يَحْلِفَ يا رَسُولَ اللهِ؛ فَقالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: مَنْ حَلَفَ عَلى يَمِينِ صَبْرٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ، وَهُوَ فِيها فاجِرٌ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبانُ).

الشرح:

في هذا الحديث الخطير بيان عظم جرم من أكل مال امرئ مسلم واستباح حقه أيا كان بالباطل. وقد ورد الوعيد أيضا في استحلال المال اليسير كما في حديث أبي أمامة: (فقال له رجل وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله قال وإن قضيبا من أراك). ولا شك أن التعدي على مال المسلم أمر محرم كما قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ). والجرم يعظم والإثم يشتد إذا كان المرء يتوصل إلى أخذ حق أخيه بالحلف الكاذبة واليمين الفاجرة فيحلف أنه مستحق لهذا المال وهو كاذب في حلفه وإنما عظم ذلك لأنه استخف بالجبار ولم يوقر الله ويقدره حق قدره ولأن الحاكم يقضي له بهذا

المال فيكون له نوع مستمسك وحق في الظاهر وقد ورد في السنة أن هذه اليمين تسمى اليمين الغموس لأنها تغمس صاحبها في النار. ولأجل ذلك كانت العقوبة المترتبة مغلظة في الآخرة وهي أن يلقى الكاذب غضب الرب عليه فكيف ستكون حاله حينئذ والعياذ بالله من سخطه. وفي الحديث إثبات صفة الغضب لله سبحانه قال تعالى: (مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ). فالغضب صفة فعلية اختيارية متعلقة بالمشيئة وأهل السنة يثبتون لله ما ثبت في الكتاب والسنة من الصفات الذاتية والصفات الاختيارية فيؤمنون بها على الوجه اللائق به سبحانه خلافا للمعطلة الذين يحرفون معاني الصفات كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتُريدية. وصفات الله الواردة في النصوص نوعان:

الأولى: صفات ذاتية: لازمة وهي كل صفة متعلقة بذات الرب ملازمة له لا تنفك عنه بحال كصفة الحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام واليدين ونحوها.

الثاني: صفات فعلية: اختيارية وكل صفة متعلقة بمشيئة الله غير ملازمة لله يفعلها متى شاء كصفة الإستواء والنزول والرحمة والرضا والغضب والحب والبغض والضحك والاستهزاء والتعجب وهذا النوع لا يثبته إلا أهل السنة السلفيين وهم وسط في باب الصفات بين المعطلة والمشبهة كما قال تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ). قال ربيعة بن فروخ: (الإستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة). وهذا هو ميزان السلف في إثبات الصفات. وبعض الشراح يقرر مذهب الأشاعرة وينسبه لأهل السنة ويشنع على مذهب السلف ويرميهم بالتشبيه والتجسيم وهذا المسلك خاطئ مخالف لنصوص الكتاب والسنة وأقوال الصحابة رضي الله عنهم وقل من الشراح من يقرر الصفات على طريقة السلف كابن عبد البر المالكي وابن رجب الحنبلي رحمهما الله. وفيه أن القاضي يحكم بما ظهر له من الحجة ويعمل باليمين على ظاهرها إذا كانت سالمة ولا يبطلها إلا بدليل بين أو مخالفتها لأصل أقوى منها وفي الصحيحين عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي على نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار). وفيه دليل على أن حكم الحاكم في الظاهر لا يبيح الحرام في الباطن

للكاذب وهذا مذهب الجمهور وهو الصحيح خلافا لأبي حنيفة في فسخ النكاح وعقده. ودلت الآية على ذم كل من باع دينه وأمانته ويمينه بشيء من متاع الدنيا الزائل فيا ويل من فعل ذلك ويا خسارته يوم القيامة وهذا كحال بعض الباعة في الأسواق خاصة في سوق السيارات والمواشي ممن يمتهنون الكذب والغش والتدليس وترويج سلعهم بالأيمان الكاذبة. وكذلك أهل الخصومات في المحاكم المتساهلين بالشهادة الفاسدة والحلف على فجور وقد أصبح ذلك ظاهرة في بعض البلاد والله المستعان. فينبغي للمؤمن أن يعظم اليمين خاصة في باب الأموال والحقوق ولو كانت يسيرة ويوقر الله ويكون صادقا ولا يحلف إلا على حق ثابت كالشمس وقد كان كثير من أهل الورع يتوقون الحلف في الخصومة عند الحاكم ولو أفضى ذلك بهم إلى التنازل عن حقهم خشية الوقوع في الوعيد.

(٤٦) الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم في حقه، وإن قتل كان في النار، وأن من قتل دون ماله فهو شهيد

١-حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (مَنْ قُتِلَ دُونَ مالِهِ فَهُوَ شَهيدٌ).

الشرح:

في هذا الحديث بيان حرمة مال المسلم وورد في معنى الباب أحاديث تدل على حرمة نفس المسلم وأهله فلا يحل لأحد أن يستبيح حرمة المسلم ويعتدي عليها بلا حق ثابت في الشرع. ودل الحديث على مشروعية دفاع المسلم عن ماله وأهله وولده ومقاومته للصائل ولو أدى ذلك إلى قتله ودفع صيالته وذهب الحنفية والمالكية إلى وجوب الدفاع عن النفس لقوله تعالى: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ).

وذهب الشافعية إلى وجوب الدفاع عن النفس إذا كان الصائل كافرا وجوازه إذا كان مسلما وذهب الحنابلة إلى التفريق بين الفتنة وغيرها فإن كان الصائل في غير زمن الفتنة فدفعه واجبا وإن كان زمن الفتنة فدفعه جائزا واستدلوا بقوله صلى الله عليه وسلم: (ستكون فتنة بعدي وأحداث واختلاف فإن استطعت أن تكون عبد الله المقتول لا القاتل فافعل). رواه أحمد. وقد صح أن عثمان رضي الله عنه منع عبيده من الدفاع عنه وكانوا أربعمائة وقال: (من ألقى سلاحه فهو حر). ولعل هذا هو الأقرب أما الدفاع عن العرض فواجب بالإتفاق. والمقرر عند أهل العلم أنه يباح له أن يدفع بالأسهل فالأسهل ولا يبتدأ في دفعه بالأشد فإن اندفع باليد اقتصر على يده وإن اندفع بالعصا اقتصر على العصا وإن لم يندفع إلا بالسلاح أبيح له ذلك ولو أدى إلى قتل الصائل قال ابن تيمية: (يدفعهم بالأسهل فالأسهل فإن لم يندفعوا إلا بالقتال فله أن يقاتلهم ونقل الإجماع على جواز دفعهم بالقتل إن لم يندفعوا بغيره). لكن يشترط أن يكون قصده الدفاع عن نفسه وحمايتها ولا يحل له أن يقصد قتله ابتدائا لأن القتال أبيح له حينئذ لغرض الدفاع لا القتل ولأن الصائل باق على عصمته لا يحل دمه إلا بما يوجب قتله شرعا. ودم الصائل هدر لا يلزم من دفعه بالقتل ضمان بقصاص أو دية أو كفارة في قول جمهور الفقهاء لأنه فعله مأذون فيه شرعا ولم يحصل منه تعدي. وقد نص أحمد بن حنبل وغيره على جواز المقاتلة على المال وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي قال فلا تعطه مالك قال أرأيت إن قاتلني قال قاتله قال أرأيت إن قتلني قال فأنت شهيد قال أرأيت إن قتلته قال هو في النار). قال أبو بكر الخلال: (سألت أبا عبد الله عن اللصوص يعرضون للرجل في الطريق قال: يقاتلهم دون ماله قلت: فإن عرضوا للرفقة ولم يعرضوا لماله ترى أن يقاتلهم قال: لا أرى أن يقاتلهم بالسيف إلا دون ماله). فلا حرج على المسلم في قتال اللصوص دفاعا عن ماله لكن ينبغي له أن يراعي الأصلح لنفسه وأهله فإذا كان في حال مخوفة ودفع المال للص يحفظ سلامته ويصون عرضه فالأولى له دفع ماله واستنقاذ حرمته وترك مقاتلته أما إن غلب على ظنه أنهم سيقتلوه استعان بالله وقاتلهم. وإذا قاتل المسلم الصائل دفاعا عن نفسه

أو أهله أو ماله ثم قتل في مقاومته كان له أجر الشهيد في الآخرة ولكن في الدنيا يغسل ويكفن ويصلى عليه ويعامل كسائر الأموات وهذا يدل على لطف الله وكمال جوده على عباده. وكذلك يشرع مع الإمام قتال الخوارج الذين يستبيحون دماء المسلمين فإذا تعرض المسلم للخوارج قاتلهم ليكف شرهم عن نفسه وعرضه ولو أدى قتاله لقتلهم فإذا قتلوه فهو شهيد وإذا فروا أمسك عن طلبهم وقتالهم وقد جاءت السنة الصحيحة على التنصيص على قتال الخوارج والترغيب في ذلك كما في الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة). أما إذا قاتل المسلم أخاه المسلم في خصومة أو شحناء أو طلبا للرئاسة أو لغرض دنيوي وقصد قتله كان قتالا محرما وإذا قتله استوجب القصاص والنار وإذا قُتل هو دخل النار لأنه كان يقصد قتل صاحبه كما روي في الصحيحين: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال إنه كان حريصا على قتل صاحبه). فينبغي على المسلم الكف عن الخوض في الدماء المعصومة وطلب البراءة منها في الدنيا ليلقى الله وصحيفته نقيه بيضاء لم يخالطها شيء من الدماء ومن سلم من الدماء فهو في بحبوبة من أمره يوم القيامة.

(٤٧) استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار

١–حديث مَعْقِلِ بْنِ يَسارٍ، أَنَّ عُبَيْدَ اللهِ بْنَ زِيادٍ عادَهُ في مَرَضِهِ الَّذي مَاتَ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَديثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (ما مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعاهُ اللهُ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحُطْها بِنَصيحَةٍ إِلاّ لَمْ يَجِدْ رائِحَةَ الْجَنَّةِ).

الشرح:

في هذا الحديث بيان خطر خصلة من الخصال التي تحرم على العبد دخوله الجنة وتوجب له النار وهي الخيانة وترك الأمانة في الولاية وهي تنافي كمال الإيمان الواجب لأن الإيمان يقتضي الأمانة والنصح فيما يؤتمن فيه العبد وذلك أن الله إذا ولى العبد ولاية في أمر من أمور المسلمين وجب عليه شرعا أن ينصح ويخلص ويراعي حقوق المسلمين ويوصل إليهم مستحقهم ويحملهم على قانون الشرع ويحفظهم من كل سوء ويعاملهم معاملة سواسية وعدل لا يفرق بينهم ولا يفضل أحدا على أحد إلا بأمر يوجب ذلك ولا يؤثر من به صلة من قريب أو صهر ونحوه على سائر الناس وقد أمر الله الولاة بأداء الأمانات وإقامة العدل فقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا). قال زيد بن أسلم: (نزلت هذه الآية في ولاة الأمر). ويدخل في هذا الحديث دخولا أوليا الولاية العظمى وكذلك كل من تولى مصلحة أو مركزا أو جهة في البلد أو على طائفة من المسلمين. والأمانة في الولاية من أعظم الأمانات وأشدها على المرء ولذلك كان كثير من السلف يتورع ويفر من توليها خشية الوقوع في الظلم. ومن ترك النصيحة في الولاية عدم إقامة الشرع فيمن ولاه الله عليهم ونشر الفساد فيما بينهم وترك السفهاء يتطاولون على أهل الفضل والعلم وتولية من ليس بأهل في المناصب وإقصاء أهل الصلاح عن المشاركة فيها. ومن الخيانة إظهار أهل الفساد وأهل البدع وتمكينهم وتركهم يعبثون بأديان الناس وأخلاقهم باسم حرية الرأي والانفتاح على ثقافة الآخر وباسم التقدم. ومن ترك النصيحة جعل أرباب الأموال والمتنفذين يتسلطون على الضعفاء ويتحكمون في مصالحهم ويعبثون في المال العام للأمة دون رقابة أو مسائلة. ومن مقتضى الأمانة في الولاية نصر المظلوم ممن ظلمه وأخذ الحق للضعيف والقيام على المساكين ممن انقطعت بهم السبل وحلت بهم المصائب وإيصال الحقوق العامة للناس ومن تضييع الأمانة عدم رفع المظالم والاحتجاب عن العامة. وقد ورد فضل عظيم في السنة للإمام العادل الصالح في نفسه المصلح لرعيته فله منزلة رفيعة في الآخرة ففي صحيح مسلم قول النبي صلى

الله عليه وسلم: (إن المقسطين عند الله تعالى على منابر من نور على يمين الرحمن الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولو). وورد في الصحيح أن الله يظله يوم لا ظل إلا ظله وورد أنه من أهل الجنة. وإذا صلح الإمام صلحت الرعية وإذا فسد فسدت الرعية فالإمام له أثر عظيم في الأمة ولذلك كان أئمة السنة يخصون الإمام بالدعاء رجاء صلاح الأمة قال ابن تيمية: (ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان). فهنيئا لمن تولى ولاية وقام بحقها وحفظها وكان سببا في صلاح الخلق وشيوع العدل والقضاء على الفساد وأهله وأظهر السنة وقمع البدعة ونصر الملة. ومن أعظم الإعانة على صلاح الولاية الدعاء والإستعانة بالله وصحبة العلماء والتفكر في السؤال يوم القيامة قالت فاطمة زوجة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: (دخلت يوماً عليه وهو جالس في مصلاه واضعاً خدَّه على يده ودموعه تسيل على خديه فقلت: مالك ؟ فقال: ويحك يا فاطمة قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت فتفكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع والعاري المجهود واليتيم المكسور والأرملة الوحيدة والمظلوم المقهور والغريب والأسير والشيخ الكبير وذي العيال الكثير والمال القليل وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد فعلمت أن ربي عز وجل سيسألني عنهم يوم القيامة وأن خصمي دونهم محمدا صلى الله عليه وسلم فخشيت أن لا يثبت لي حجة عند خصومته فرحمتُ نفسي فبكيت). ومن كانت نفسه ضعيفة في القيام بالشرع أو ذات شح وطمع لا تقوى نفسه على التورع عن المكاسب المحرمة أو كان طالبا للرئاسة فلا ينبغي له أن يتولى ولاية ولا يحدث نفسه بذلك ويعرض نفسه لسخط الله ومقته وما ورد في السنة من الذم في هذا الباب فمحمول على هذا المعنى وقد ورد الوعيد في طلب الإمارة والتشوف لها كما في صحيح البخاري: (إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعم المرضعة وبئست الفاطمة). وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يولي من سأل الولاية أو حرص عليها كما ورد في صحيح البخاري. فينبغي للمؤمن أن يتجنب الولايات إلا إذا اقتضت المصلحة واحتاجت له الأمة وكان أهلا لذلك وإذا تولى ولاية استعان بالله واستشار أهل الفضل ووجب عليه القيام بحقها والحذر أشد الحذر من استعمالها لمصالحه ومن استعان

بالله أعانه الله ووفقه وسدده. ومن المؤسف أن كثيرا من الناس اليوم يرون أن الولاية شرف وطريق سهل لجمع الثروة وزيادة الأرصدة فالله المستعان.

(٤٨) رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب

١–حديث حُذَيْفَةَ قَالَ: حَدَّثَنا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَديثَيْنِ، رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا، وَأَنا أَنْتَظِرُ الآخَرَ حَدَّثَنا (أَنَّ الأَمانَةَ نَزَلَتْ في جَذْرِ قُلوبِ الرِّجالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ وَحدَّثَنا عَنْ رَفْعِها قالَ: يَنامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُها مثل أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ، فَيَبْقى أَثَرُها مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلى رِجْلِكَ، فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبايَعُونَ فَلاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ، فَيُقَالُ إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا؛ وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَان وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيَّكُمْ بَايَعْتُ؛ لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمُ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ، فَأَمَّا الْيَوْمَ، فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا). متفق عليه .

الشرح:

في هذا الحديث إخبار عن رفع خلق الأمانة في الأمة وهو من باب أشراط الساعة الصغرى التي أطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم عليها وهو يدل على صدق النبوة. وقد أخبر في الحديث أن المؤمنين المتبعين للنبي صلى الله عليه وسلم تنزل الأمانة أولا في قلوبهم والمراد بها الإيمان وهي تشمل ما اؤتمن عليها العبد فيما بينه وبين الله وفيما بينه وبين الناس بحيث يوفي بعهد الله وعهد الناس ثم يحصل العلم بالكتاب والسنة ثانيا. وفيه دليل على أن الإيمان قبل العلم وهكذا كان منهج الصحابة رضي الله عنهم في تلقي الدين يصدقون ويقرون وينقادون ثم يتعلمون تفاصيل الشريعة ويعملون بها شيئا فشيئا. ثم أخبر أن الأمانة تقبض وتزول من قلوب الرجال والمراد الكمال الواجب وليس أصلها

وهذا يقتضي نقص الإيمان وضعفه فلا يبقى في القلب من الأمانة إلا أثر يسير كأثر الجمر إذا دحرجته وتبقى نفط يسير لا يكاد يرى بالعين. وفيه دليل على أن الأمانة تقل عند الناس منذ زمن مبكر لأن حذيفة رضي الله عنه أخبر أن ذلك وقع في الصدر الأول فكيف بزماننا هذا. وفيه دليل على تغير أحوال الناس في المبايعات والمعاملات المادية وانتشار الغش والتدليس والخيانة وغلبة الشح والطمع على جمع المال ولو من طريق محرم وهذا واقع في كثير من الأسواق في هذا الزمان لا يحتاج إلى برهان والله المستعان. وفيه إشارة إلى أن كمال هيئة الرجل وجمال زينته وصورته لا يدل على صدقه وأمانته ووفائه فلا ينبغي للمؤمن أن يغتر بالظواهر وليحتاط في تجارته كما احتاط حذيفة فصار لا يبايع إلا من وثق بأمانته. وفيه قلة الأمناء في الأمة بحيث يصبح لا يعرف في القبيلة والبلد إلا شخصا معينا وهذا التغير وإن كان معهودا في الجملة إلا أنه نسبي فقد تكثر الأمانة في فترة ومكان ولو كانا متأخرين كما انتشرت الأمانة في زمن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله لعدله. وفي قصة حذيفة عزاء وتسلية للمؤمن إذا بقي في مجتمع حثالة أو قوم من أهل الغفلة والفساد فعليه أن يصبر ويثبت على الحق حتى يلقى ربه.

والأمانة لها منزلة عظيمة في الدين فلا إيمان لمن لا أمانة له وقد عظم الله شأن الأمانة وبين خطرها في قوله تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا). والأمانة عامة في كل ما عهد للمؤمن حفظه وأخذ عليه ذلك من الفرائض والجوارح والمال والوقت والولاية ورعاية الأهل والحيوان والوفاء بالعقود والجوار وغير ذلك. والقيام بمقتضى الأمانة دليل على صدق الإيمان وكماله وعدمها يدل على نقص الإيمان وضعفه ومن المؤسف أن ترى الرجل يصلي ويصوم ويتنسك فإذا حضرت الأمانة هلك وخان الأمانة وترك الوفاء وهذا من صور الإنحراف في مفهوم التدين قصره على حق الله دون حق العباد.

(٤٩) بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وأنه يأرز بين المسجدين

١-حديث حُذَيْفَةَ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ رضي الله عنه فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي الْفِتْنَةِ قُلْتُ: أَنَا كَمَا قَالَهُ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَيْهِ أَوْ عَلَيْهَا لَجَرِيءٌ؛ قُلْتُ (فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ). قَالَ: لَيْسَ هذَا أُرِيدُ وَلكِنْ الْفِتْنَةُ الَّتِي تَمُوجُ كَمَا يَمُوجُ الْبَحْرُ، قَالَ: لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا، قَالَ: أَيُكْسَرُ أَمْ يُفْتَحُ قَالَ: يُكْسَرُ، قَالَ: إِذًا لاَ يُغْلَقُ أَبَدًا. قُلْنَا: أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ الْبَابَ قَالَ نَعَمْ، كَمَا أَنَّ دُونَ الْغَدِ اللَّيْلَةَ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ بِحَدِيثٍ لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ، فَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا فَسَأَلَهُ؛ فَقَالَ: الْبَابُ عُمَرُ.

٢-حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: (إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا). متفق عليه.

الشرح:

الحديث الأول فيه بيان لفتنتين خاصة وعامة أما الخاصة فما يجري للمؤمن من افتتان بالمال والزوجة والعيال والجار فيقسو قلبه ويغفل عن ذكر الله ويتكاسل عن أداء الفرائض ويتغير سلوكه فيقع في نوع من الكذب والغش وعدم الوفاء بالوعد والعهد طاعة واستجابة لسلطان المال والأهل وتأثرا بهواهم وقد يكون ذلك في شيئ يسير وقد حرَّم النبي صلى الله عليه وسلم العسل على نفسه التماسا لمرضات أزواجه فعاتبه ربه عز وجل في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ). ودل الحديث على أن افتتان المرء بهذه الأمور يكفرها مواظبته على فعل الفريضة في وقتها وأداء الصوم وإنفاق المال للفقراء وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فإن هذه العبادات من أعظم ما يتقرب به العبد لربه ولها منزلة في الدين وحسناتها تمح السيئات والمشهور عند المحققين أنها تكفر الصغائر أما الكبائر فلا بد في تكفيرها من التوبة الخاصة للأدلة الصريحة في هذا الباب فينبغي على العبد أن يستكثر من الأعمال

الصالحة ليرجح ميزانه بالخير يوم القيامة. أما الفتنة العامة فهي ما وقع بين الصحابة رضي الله عنهم من الاختلاف في أمور مشتبهة للاجتهاد فيها مساغ ثم تطور الأمر إلى الاقتتال والنزاع وقد كان الحاجز بين الصحابة وبين الوقوع فيها قتل الخليفة عمر الفاروق رضي الله عنه لما اختصه الله من الحكمة ومعرفة الحق والحزم وأطر الناس على اتباع الشرع وقد سلم منها رضي الله عنه. وقوله في وصفها تموج كما يموج البحر يدل على عظمها وشدة أثرها وقوة الاشتباه فيها وما حصل فيها من التفرق والحيرة والدماء فقاتل فيها طائفتان وكان الحق مع طائفة علي رضي الله عنه واعتزلها قوم فسلموا ومع ذلك فإنها فتنة سلمت منها دمائنا فلتسلم منها ألستنا ومذهب أهل السنة والجماعة الإمساك عن الخوض في الصحابة رضي الله عنهم وعدم انتقاصهم والطعن فيهم وانتقادهم لعظم منزلتهم في الدين وثناء الله عليهم وقدم سابقتهم في نصرة النبي وتبليغ الدين والجهاد في سبيل الله وهم مجتهدون في ذلك وخطؤهم مغفور في بحر حسناتهم ومن انتقصهم فقد انتقص مقام الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الله خصهم واصطفاهم لصحبته ومن طعن فيهم طعن في الشريعة لأن الشريعة رويت عن طريقهم وكثيرا مما يروى عنهم في هذا الباب كذب مختلق لا يصح ولا يعول عليه قال عمر بن عبد العزيز: (تلك دماء طهّر الله يدي منها أفلا أطهر منها لساني مثل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل العيون ودواء العيون ترك مسها). وقال أبو عثمان الصابوني في عقيدة السلف وأصحاب الحديث: (ويرون الكف عمّا شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيباً لهم ونقصاً فيهم ويرون الترحم على جميعهم والموالاة لكافتهم). وقال ابن تيمية: (ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغُيّر عن وجهه والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون). وهذا هو منهج أهل السنة في هذا الباب ومن المؤسف أن ترى بعض المفكرين الإسلاميين المنحرفين عن السنة في هذا الزمن ينتقصون الصحابة رضي الله عنهم يخالفون القرآن والسنة والإجماع ويسلكون منهج المعتزلة والرافضة والخوارج الضلال لا كثرهم الله وشعار أهل السنة الثناء على الصحابة وشعار أهل البدعة الوقيعة في الصحابة ومن تنقص

الصحابة أخزاه الله وأذله وأذهب سعيه ولا تقم له قائمة أبدا. أما الحديث الثاني ففيه بيان لحدث عظيم في آخر الزمان وهو أن الإيمان الذي خرج من المدينة أول الأمر وانتشر في أصقاع المعمورة شرقا وغربا ودانت له الدول العظمى ودخل فيه الناس أفواجا وظهر ظهور عظيما في العالم على سائر الأديان هذا الإيمان ينحسر ويقل ويصبح غريبا في آخر الزمان فيعود وينزوي إلى أصله في المدينة كما تعود الحية بعد انتشارها إلى جحرها وهذا فيه كناية عن غربة الدين في آخر الزمان كما كان غريبا في أوله ويأوي الثلة الباقية من أهل الإيمان إلى المدينة فيأتيهم الدجال ولا يستطيع دخولها لأنها محروسة بالملائكة وتحمى من الفتن وهذا من خصائصها وعظم فضلها وقد ورد فيها فضائل أخرى مشهورة في فضل سكناها من مضاعفة الصلاة فيها ألفا وبركة طعامها وثبوت شفاعة الرسول وشهادته لمن مات فيها وحمايتها من الدجالين والملحدين ولا يدخلها الطاعون فالمدينة مركز الإسلام منها ذاع وإليها يعود ويسكن.

(٥٠) جواز الاستسرار للخائف

١-حديث حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم (اكْتُبُوا لِي مَنْ تَلَفَّظَ بِالإِسْلاَمِ مِنَ النَّاسِ فَكَتَبْنَا لَهُ أَلْفًا وَخَمْسَمِائَةِ رَجُلٍ فَقُلْنَا نَخَافُ وَنَحْنُ أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا ابْتُلِينَا حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي وَحْدَهُ وَهُوَ خَائِفٌ). متفق عليه.

الشرح:

في الحديث بيان حال الصحابة السابقين بالدخول في الإسلام أول الأمر وما كانوا فيه من الضعف والهوان والخوف من الكفار فلما زادوا وبلغوا ألفا ونصف ظنوا أن شوكتهم قوت وأنهم قادرون على دفع كيد الكفار وقهرهم فأظهروا إيمانهم فابتلوا ابتلاء عظيما وعذبوا في ذات الله ثم لم يطيقوا ذلك فأسروا بإيمانهم وهذا فيه دليل صريح على جواز

إخفاء المؤمن إيمانه إذا كان يقيم في بلد الكفر وخشي على دينه من فتنة الكفار ودل القرآن على جواز المجاهرة بالكفر إذا أكره على ذلك كما في قوله تعالى: (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ). وأخرج الحاكم عن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه قال: (أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه.فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له عليه الصلاة والسلام: ما وراءك. قال: شر يا رسول الله. ما تُرِكت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. قال: فكيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان قال: فإن عادوا فعد). ولا يشرع للمؤمن أن يعرض نفسه ما لا يطيقه من البلاء حتى لا يذل نفسه ولا يشرع له أن يتمنى لقاء العدو وإذا ابتلي فليصبر لما في الصحيحين: (لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا). فينبغي للمؤمن في هذه الأحوال أن يستتر بدينه ويصبر ويتنسك خفية ويسأل ربه النجاة بدينه حتى يأتيه الفرج من الله إما بانتشار الإسلام في بلده أو بلحوقه بجماعة أهل الإيمان وفراره بدينه ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها وإن قتله المسلمون مستضعفا مع الكفار بعث مؤمنا لأنه معذور وإن وجد سبيلا للهجرة وجب عليه في الحال أن يهاجر ويترك ماله وقومه في سبيل الله صيانة لدينه وحفظه وإن ترك الهجرة حينئذ كان عاصيا ومرتكبا لكبيرة عظيمة لا توجب خروجه من الدين قال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وِلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ). أما إذا كان في منعة في قومه الكفار ولا يخشى سوطا أو قتلا وجب عليه أن يظهر إيمانه ويعتز بدينه ولو لحقه لوم وأذى بالكلام كحال النبي صلى الله عليه وسلم في حماية عمه أبي طالب. وتأول قوم من الخوارج في هذا الزمان أدلة الاستسرار حال الخوف وحرفوها عن موضعها فاستدلوا بها على إخفاء الرجل دينه ومذهبه في بلاد الإسلام في سبيل تكفير المسلمين واستباحة أموالهم ودمائهم والخروج على جماعتهم والجهر بالدعوة من شعار أهل السنة والإسرار بالدعوة من شعار أهل البدعة ولذلك قال الخليفة عمر بن عبد العزيز: (ولتُفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا). ولا يبطن المرء عقيدته

ومذهبه بين المسلمين إلا إذا كان مذهبه باطل مخالف لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الحق كدين الباطنيين من العلويين والإسماعلية والدروز.

(٥١) تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه والنهي عن القطع بالإيمان من غير دليل قاطع

١-حديث سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ، فَتَرَكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَجُلاً هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَكَ عَنْ فُلاَنٍ فوالله إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فَقَالَ: أَوْ مُسْلِمًا فَسَكَتُّ قَلِيلاً ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي فَقُلْتُ: مَا لَكَ عَنْ فُلاَنٍ فوالله إِنِّي لأَرَاهُ مُؤمنًا فَقَالَ: أَوْ مُسْلِمًا فَسَكَتُّ قَلِيلاً ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ، فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، وَعَادَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قَالَ: يَا سَعْدُ إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ).

الشرح:

في هذا الحديث مشروعية بذل مال الصدقة للمؤلفة قلوبهم وهو أحد مصارف الزكاة الثمانية قال تعالى: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ). وهذا المصرف يشمل إعطاء الكافر ليسلم أو يسلم نظيره أو يعطي من يتقى شره أو ضعيف الإيمان ليقوى إيمانه ونحو هذا الغرض مما يعود بالمصلحة والنفع للمسلمين على حسب نظر الإمام واجتهاده وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المال العظيم للرؤساء والأعيان يتألفهم ويتقي شرهم قال ابن تيمية: (والمؤلفة قلوبهم نوعان كافر ومسلم فالكافر إما أن يرجى بعطيته منفعة كإسلامه أو دفع مضرته إذا لم يندفع إلا بذلك والمسلم المطاع

يرجى بعطيته المنفعة أيضا لحسن إسلامه أو إسلام نظيره أو جباية المال ممن لا يعطيه إلا لخوف أو لنكاية في العدو أو كف ضرره عن المسلمين إذا لم ينكف إلا بذلك).

والتحقيق أن هذا المصرف باق إلى يوم القيامة خلافا لمن قال أنه شرع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ثم نسخ فلا دليل على قوله والنصوص محكمة لم يدخلها النسخ.

وفي الحديث دليل على أن الإمام والعالم قد يجتهد في أمر لا يظهر لغيره بادئ الأمر فإذا روجع تبين وجه اختياره فلا ينبغي المبادرة بالإنكار والتعنيف. وفيه دليل على جواز مراجعة المفضول للفاضل ومناقشته بغية اتباع الحق وتحقيق المصلحة فعلى الفاضل أن يتقبل ذلك بصدر رحب كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم لما راجعه سعد وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعنف أصحابه أبدا عندما يراجعوه وعلى المفضول أن تكون مراجعته برفق وأدب ومراعاة لمنزلة الأمير والعالم وفي مجلس خاص كما فعل سعد رضي الله عنه أما التعنيف والتشهير فيصدر من أهل الجفاء والسفه وهو مسلك الخوارج الذين يسعون لإشعال الفتنة وتفريق الصف ونبذ الجماعة. وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أو مسلما). أنكر على سعد وصفه بالإيمان لخفائه وأرشده إلى وصفه بالإسلام لأنه أمر ظاهر وفيه دليل على النهي عن تزكية الإنسان ووصفه بالإيمان على سبيل التعيين لأن حقيقة ذلك لا يطلع عليه إلا الله فلا يجوز وصف معين بالإيمان أو بالجنة إلا ما ورد وصفه بالقرآن والسنة ولذلك نهى الله عز وجل عن تزكية النفس فقال: (فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى). فالسنة التزام القصد وترك المدح وعدم المبالغة والغلو في الآخرين مهما ظهر صلاحهم لأن ذلك يفسدهم بالعجب خلافا لما يفعله كثير من الناس اليوم وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن نحثو في وجوه المداحين التراب كما في مسند أحمد وفي الصحيحين عن أبي بكرة قال: (مدح رجل رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم قال: فقال ويحك قطعت عنق صاحبك قطعت عنق صاحبك مرارا إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل أحسب فلانا والله حسيبه ولا أزكي على الله أحدا أحسبه إن كان يعلم ذاك كذا وكذا). وفي الحديث دليل على أن استعمال المال في الدعوة وتأليف القلوب على الحق والثبات عليه سلاح فعال له أثر عظيم في انتشار الدعوة وكثرة الأتباع

خاصة في البلاد التي يكون الإسلام فيها غريبا وضعيفا لقلة معتنقيه وضعف منابعه وغلبة أهل الباطل وكثرة المعوقات لكن يجب أن يكون البذل لإعلاء كلمة الله ونشر السنة وقمع البدعة وليس لأجل نصرة حزب أو ولاء لشيخ أو طريقة فكل ذلك ليس لله ولا طاعة لرسوله صلى الله عليه وسلم وكم رأينا كم أفسد المال القلوب وأوقع الفرقة والتحزب لغير الله بين أهل السنة والله المستعان.

(٥٢) زيادة طمأنينة بتظاهر الأَدلة

١–حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤمِنْ قَالَ بَلَى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) وَيَرْحَمُ اللهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ؛ وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طولَ مَا لَبِث يُوسُفَ لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ).

الشرح:

هذا الحديث في مناقب بعض الأنبياء عليهم السلام وفضائلهم. وفي الحديث دليل على أن العبد يزداد يقينه ويقوى إيمانه بكثرة الأدلة على عظم الله وكمال قدرته ودقيق صنعه وسعة علمه وعموم مشيئته فكلما زاد الدليل زاد اليقين فلا يلام العبد على طلب الدليل والبحث عن الآيات الباهرة والبراهين الساطعة كما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين سأل ربه أن يطلعه على كيفية إحيائه للموتى فسأله ربه وهو أعلم به ألم تؤمن يا إبراهيم فأجاب إبراهيم أنه مؤمن حقا به وليس شاكا بقدرته ولكن يرغب في زيادة طمأنينة قلبه والترقي من علم اليقين إلى عين اليقين فأطلعه الله على دليل حسي بهر إبراهيم وتحقق له اليقين قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ

تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ). قال ابن عباس رضي الله عنه : (ما في القرآن آية أرجى عندي منها). وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (نحن أحق بالشك من إبراهيم) معناه لو ورد الشك على إبراهيم عليه السلام لكنت أحق به منه لعظم يقين إبراهيم ورسوخ إيمانه فهو إمام الحنفاء ومعلوم أن الشك مستحيل في حق إبراهيم عليه السلام كما نص أهل العلم على ذلك ومستحيل في حق نبينا محمد وإنما أراد بذلك النبي صلى الله عليه وسلم بيان منقبة لإبراهيم وهي كمال يقين الإيمان بالله وأفعاله وصفاته وقد أثنى الله عز وجل على إبراهيم عليه الصلاة والسلام في إمامته بالتوحيد واعتزاله الشرك وأهله قال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ). ولذلك أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم باتباع حنيفية إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال تعالى: (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله علسه وسلم: (إني أرسلت بحنيفية سمحة). رواه أحمد. وفيه دليل على اتصاف النبي لوط عليه الصلاة والسلام بمنقبة كمال التوكل على ربه حيث كان يأوي إلى الله لأنه أقوى الأركان وأشدها وأمنعها لما ابتلاه قومه واعتدوا على حرمته وأرادوا فعل السوء بأضيافه الملائكة وانقطعت عنه أسباب الخلق فالتفت قلبه إلى ربه وفوض أمره إليه فأنزل الله عذابا على قومه ونجاه مع أهله وهكذا ينبغي على الموحد أن يتوكل على ربه إذا نزل به البلاء وكاده الأعداء. وفي الحديث دليل على اتصاف النبي يوسف عليه الصلاة والسلام بمنقبة الصبر على بلاء السجن وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما سجن سنين طويلة بعث إليه الملك رسولا ليخرجه فلم يخرج معه طلبا للراحة والدعة والخلاص من عذاب السجن ووحشته ولكن أرسله إلى الملك وقال له اسأل النساء ما سبب سجني واتهامي ليتبين براءته وطهارته من الذنب الذي اتهم به ودنست بسببه سمعته ثم إن تبين أنه بريء خرج عزيزا مرفوع الرأس وهذا الموقف يبين قوة صبر يوسف وحكمته وبعد نظره للأمور وقصة النبي يوسف أعظم عزاء لمن سجن في سبيل إعلاء كلمة الله وبيان الحق. وما حكاه النبي صلى الله عليه وسلم في مدحه لإخوانه الأنبياء

محمول فيما يظهر على سبيل التواضع ليبين علو قدرهم وعظيم منزلتهم ووجوب احترامهم ومع ذلك فقد دلت النصوص المتكاثرة على أنه أفضل منهم على سبيل الإطلاق صلوات الله عليهم جميعا كقوله صلى الله عليه وسلم: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع). رواه مسلم. وفيه دليل على أن ثبوت فضيلة لشخص معين على غيره لا تقتضي مفاضلته عليه من كل وجه فقد يفوق المفضول الفاضل في صفة معينة لكن الفاضل أفضل منه في مناقب كثيرة وهذا واقع في الأنبياء والصحابة فمن بعدهم ومعلوم أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كان يفوق أبا بكر الصديق في صفة معينة ولكن أبو بكر رضي الله عنه أفضل منه ومن غيره من الصحابة على سبيل الإطلاق بالاتفاق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً). متفق عليه. والله يؤتي فضله من يشاء والله واسع عليم.

(٥٣) وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته

١–حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

٢–حديث أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (ثَلاَثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ، رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ).

الشرح:

في الحديث الأول دليل على أن الله عز وجل أيد رسله بالمعجزات الباهرة والبراهين الساطعة ليؤمن بهم الناس وكل نبي خصه الله بمعجزة كبرى تبهر العقول وتدل على صدق نبوته وصحة رسالته وقد يجتمع للنبي أكثر من معجزة والأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم معجزاتهم حسية يشاهدها من حضرها فنوح معجزته السفينة وإبراهيم معجزته نجاته من النار ويوسف معجزته تفسير الأحلام وسليمان معجزته تسخير الجن ومخاطبة الحيوان وداود معجزته القوة وصالح معجزته الناقة ويونس معجزته خروجه حيا من بطن الحوت وموسى معجزته العصا وعيسى معجزته إحياء الموتى واشفاء المرضى وقد شاركهم محمد بجنس المعجزات الحسية من انشقاق القمر والإسراء والمعراج بالبراق وحنين الجذع وسلام الحصا ونبع الماء من يده وغير ذلك ولكن الله ميز محمدا صلى الله عليه وسلم بمعجزة تفوق سائر المعجزات وهي القرآن العظيم لأنه كلام الحق لا يأتيه الباطل أبدا وهو معجز في ألفاظه ومعانيه وبيانه وأسراره وحكمه وأحكامه لا يخلق أبدا ولا يقوى أحد على معارضته ومحاكاته وهذه المعجزة مستمرة باقية ليوم الدين لا تختص بزمانه خلافا لمعجزات الأنبياء التي انقرضت بانقراض زمانهم وهذا يدل على فضل النبي محمد على سائر الأنبياء قال تعالى: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا). وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة). وفي الحديث دليل على أن أتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم أكثر أتباعا من سائر الأنبياء وهذا يدل أيضا على فضله عليهم. وفي الحديث الثاني ذكر النبي صلى الله عليه وسلم من يستحق أجرين لجمعهم سببين يوجبان ذلك وهذا من فضل الله عليهم وهم ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: رجل من بني إسرائيل كان مؤمنا بنبيه واستمر على ذلك حتى بلغه نبوة نبينا محمد وأيقن أنه خاتم للرسل وشريعته ناسخة لشريعة نبيه فآثر الآخرة على أهله وماله وعشيرته ومسكنه فآمن بمحمد وتحمل في سبيل ذلك اللوم والمشقة والنصب فآتاه الله أجرا لإيمانه بنبيه وأجرا آخر لإيمانه بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبلغ منزلة

عظيمة في الآخرة لأنه قدم اتباع الحق على هوى قومه أما من استمر على إيمانه بنبيه من أهل الكتاب وجحد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن بلغته ثم مات على ذلك فهو كافر بالله ومن أهل النار كما قال رسولنا صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا كان من أهل النار). رواه مسلم. ودينه باطل لا يقبل منه لقوله تعالى: (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ). وهذا حال عامة الكتابيين زمن البعثة وبعدها وقليل منهم من اتبع الحق كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي رضي الله عنهما.

الصنف الثاني: هو العبد المملوك الذي قام بحق الله بأداء فرائضه واجتناب نواهيه والاستقامة على شرعه وسلوك سبيل الطاعة وجمع مع ذلك القيام بحق سيده من طاعته ونصرته وحفظ أهله وماله وعدم خيانته وغدره في أمر من الأمور وقدم طاعة سيده على هواه ولم يلتفت لرغبات نفسه فآتاه الله أجرين لقيامه بحقه وحق سيده.

الصنف الثالث: رجل كان يملك أمة فرباها وأدبها على آداب الإسلام وعلمها القرآن ثم لما بلغت مبلغ النساء أعتقها وتزوجها إكراما لها فآتاه الله أجرين لإحسانه في تربيتها كما يحسن لابنته من صلبه وإحسانه في زواجه منها كما يحسن للحرائر فهذا الرجل لم يتسلط على أمته ويهينها ويعاملها كالحيوان كعادة الأسياد غالبا بل اتقى الله في ملكه وأحسن إليها غاية الإحسان وهذا ناشئ عن كمال الإيمان وخشية الرحمن والتواضع وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعامل الإماء والعبيد. فالصنف الأول تمثل فيه صفة اتباع الحق والصنف الثاني تمثل فيه صفة الأمانة والصنف الثالث تمثل فيه الإحسان إلى الغير. وقد ورد في السنة أصناف أخرى ممن يؤتون أجورهم مرتين أزواج النبي القانتات وقارئ القرآن الذي عليه شاق والحاكم المجتهد المصيب للحق والمتصدق على قريبه ومن سن سنة حسنة والعامل في زمن الفساد وغيرهم وجملة من الأحاديث تروى في هذا الباب بأسانيد فيها مقال عند أهل الحديث. وفي الحديث دليل على أن الأجر يتعدد ويتضاعف على حسب تعدد الأسباب الموجبة لذلك. وفيه دليل على عظم فضل الله وكثرة جوده وإحسانه بعباده وأن الله يجزل العطاء ويزيد الثواب لمن قام فيه أصناف من الخير وأبواب من العبادات. وما ورد في الحديثين يدل على وجوب الإيمان برسالة محمد

صلى الله عليه وسلم والبراءة من سائر الأديان لأن الله أوجب ذلك على جميع الخلق بعد بعثته صلى الله عليه وسلم ولأن الله نسخ جميع الملل والشرائع بملته وشريعته ولأن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم للخلق كافة وقد تواتر هذا المعنى في الكتاب والسنة قال تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا). وقال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ). وقال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي لأرض طهورا ومسجدا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون). رواه مسلم. وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى عليه وسلم: (كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة). قال ابن القيم: (وقد جاء القرآن وصحَّ الإجماع بأنَّ دين الإسلام نسخ كل دين كان قبله وأنَّ من التزم ما جاءت به التوراة والإنجيل ولم يتبع القرآن فإنَّه كافر وقد أبطل الله كلَّ شريعة كانت في التوراة والإنجيل وسائر الملل وافترض على الجن والإنس شرائع الإسلام فلا حرام إلا ما حرمه الإسلام ولا فرض إلا ما أوجبه الإسلام).

(٥٤) نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

١–حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ).

٢-حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ).

الشرح:

في هذين الحديثين بيان حقيقة غيبية لا يرتاب فيها المسلم وهي نزول النبي عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام إلى أمة محمد في آخر الزمان وهذا من أشراط الساعة التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم ولا بد أن تتحقق. وفي هذا الحدث دلالة صريحة على أمرين: الأول: أن النبي عيسى بن مريم عليه السلام حي يرزق لم يمت أبدا وقد نص القرآن على هذا في قوله تعالى: (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا). خلافا لاعتقاد النصارى المحرف أن اليهود صلبوه ومات وهذا اعتقاد باطل مخالف للكتاب والسنة والإجماع ومن اعتقد هذا المذهب بعد إقامة الحجة عليه فهو كافر لأنه مكذب لله ورسوله والحق أن الله ألقى شبه عيسى على أحد حواريه لينجي عيسى فقتل اليهود الشبيه ولم يقتلوا عيسى قال قتادة السدوسي: (أولئك أعداء الله اليهود ائتمروا بقتل عيسى ابن مريم رسول الله وزعموا أنهم قتلوه وصلبوه وذكر لنا أن نبي الله عيسى بن مريم قال لأصحابه: أيكم يقذف عليه شبهي فإنه مقتول. فقال رجل من أصحابه: أنا يا رسول الله. فقتل ذلك الرجل ومنع الله نبيه ورفعه إليه).

الثاني: أن مكان النبي عيسى عليه السلام منذ أن رفعه الله إلى وقت نزوله في السماء عند الرب وهذا جاء صريحا أيضا في القرآن في قوله تعالى: (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ). ومن اعتقد غير ذلك بعد إقامة الحجة عليه فهو كافر لأنه مكذب لله ورسوله وأما قوله تعالى: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا). فالمراد بالتوفي هنا ليس قبض الروح وإنما معناه استيفاء مدة بقاء عيسى في الأرض فيكون المعنى: يا عيسى آخذك وافيًا بروحك وبدنك وقد اختار هذا القول ابن جرير وحكاه عن طائفة من السلف وهذا التفسير حق موافق لدلالة اللغة ومقتضى الأدلة الصريحة وإجماع الأمة ومن المفسرين من فسر الوفاة هنا بالنوم ونزع إلى قوله تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ

مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ). وهذا قول أكثر المفسرين ومن المفسرين كقتادة وغيره من قال إن في الآية تقديم وتأخير والمعنى: إني رافعك إلي في السماء ثم متوفيك بعدد نزولك الأرض وهذا الوجه ضعيف والحاصل أن هذه الآية من المتشابه التي يجب حملها على المحكم وقد اتفق أهل السنة على موافقتها لما تواتر من رفع عيسى ونزوله في آخر الزمان.

وفي الحديثين دليل على أن عيسى عليه السلام إذا نزل يقوم بعدة وظائف ربانية ويحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم وهذا يدل على أن عيسى عليه السلام يدخل في دين محمد ويكون من أتباعه لأن شريعة محمد ناسخة لشريعة عيسى وغيره وهذا يدل على فضل محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء. وقوله فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية فيه دليل على زوال شعائر النصارى يومئذ وأن جميع النصارى يتخلون عن دينهم المحرف ولا يقبل منهم إلا الإسلام ويدخلون في دين محمد صلى الله عليه وسلم ويكون دين محمد غالبا في ذلك الزمن وينتشر دين الإسلام الحق في المعمورة.

وفي الحديث الثاني دليل على أن عيسى بن مريم حين نزوله يأتم بإمام من المسلمين في الصلاة وقد جاء مصرحا في بعض الروايات: (أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق وأنه يقتل الدجال). وهذا يدل على أن عيسى عليه الصلاة والسلام يقتل اليهود ويقتل زعيمهم الدجال ونزوله يكذب زعم اليهود وادعائهم في قتله وهذا أيضا فيه تأكيد على أن عيسى حين نزوله يكون متبعا لمحمد داخل في شريعته وليس مرسلا بشريعته لأن شريعته فات وقتها في زمانه الأول فلا يجوز العمل بها ألبتة. وقد بشر عيسى بفضل أمة محمد في الإنجيل فكان يدعو أن يكون منهم فاستجاب الله دعائه وأبقاه حتى ينزل فيهم ويكون منهم قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ). قال ابن عباس: (ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه). وقد ورد في صحيح مسلم أن زمن عيسى ابن مريم حين نزوله

تعم فيه البركات وينتشر فيه الأمن وتزول الشحناء والبغضاء بين المؤمنين ويرسل الله فيه المطر الغزير وتخرج الأرض ثمرتها وبركتها ويفيض المال ويمكث عيسى بن مريم بعد نزوله سبع سنين ويؤدي نسك الحج والعمرة إلى البيت العتيق ويملأ الأرض عدلا ثم يموت ويصلي عليه المسلمون ويدفن في الأرض. ولو تأمل النصارى اليوم في هذه الدلائل والبشارات لعلموا حق اليقين أن دينهم اليوم باطل وأنهم محرفون للإنجيل وأن دينهم مردود لا يقبل عند الله وأنهم من أهل النار إذا ماتوا على ذلك ولكن ما يصرفهم عن اتباع الحق هو حب الدنيا وطلب الرئاسة والتعصب والغلو في رهبانهم وغلبة الجهل والضلال ومع ذلك فهم أقرب إلى اتباع الحق من اليهود الذين يعرضون عن الحق مع معرفتهم الحق وعنادهم وشدة عداوتهم للمسلمين قال تعالى: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ). قال ابن كثير: (ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عناد وجحود ومباهتة للحق وغمط للناس وتنقص بحملة العلم ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة وسحروه وألَّبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة). كفى المسلمين شرهم ورد كيدهم في نحورهم وجعل الدائرة عليهم.

(٥٥) بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان

١–حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، وَذَلِكَ حِينَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ثُمَّ قَرَأَ الآيَة).

٢–حديث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه

وسلم جَالِسٌ، فَلَمَّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ قَالَ: (يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هذِهِ قَالَ قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ تَسْتَأْذِنُ فِي السُّجُودِ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَكَأَنَّهَا قَدْ قِيلَ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا ثُمَّ قَرَأَ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللهِ (ذَلِكَ مُسْتَقَرٌّ لَهَا).

الشرح:

في هذا بيان لإحدى علامات الساعة الكبرى وهي طلوع الشمس من مغربها وذلك أن الله عز وجل جعل للشمس نظاما يوميا محكما في طلوعها وحركتها وسيرها لا يتغير لحكمة تنظيم الأفلاك كما قال تعالى: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ). قال ابن عباس: (إنها إذا غربت وانتهت إلى الموضع الذي لا تتجاوزه استقرت تحت العرش إلى أن تطلع). فجعل من عادتها طلوعها كل يوم من مشرق الأرض منذ الأزل ثم إذا أراد الله قيام الساعة أمر الشمس هذا المخلوق العظيم أن تخرج من مغرب الأرض على خلاف عادتها لأن كل الأرض وأحوالها وما فيها تتغير وتتبدل عند قيام الساعة وحينئذ يرى جميع الخلق هذه الآية العظيمة فيوقنوا بقيام الساعة. وفيه دليل على أن الكافر لا يقبل منه الإيمان مطلقا عند خروج الشمس من مغربها لأن العمل في الدنيا قد انقطع وصار كل ما أخبر به الله جل جلاله ورسوله صلى الله عليه وسلم حق ويقين يستوي في تصديقه المؤمن والكافر وليس ذلك بإيمان معتبر شرعا إنما الإيمان الحق المقبول عند الله ما كان في الغيب ومخالفة الهوى والعشيرة والآباء أما الإيمان عند رؤية اليقين فدعوى كاذبة عارية من الصحة ولذلك قال تعالى: (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيَ إِيمَانِهَا خَيْرًا). وفيه دليل على أن الشمس تسجد لله سجودا حقيقيا لا نعرف صفته وكيفيته ومكانه ونكل علمه لله لأن الله لم يطلعنا عليه لكننا نقطع ونجزم بصدقه ونقف عند خبر المعصوم ولا نتجاوزه والمؤمن يطمئن قلبه بذلك والمنافق والمرتاب يتشكك ويجد في قلبه حزازة بذلك ويعترض على هذه الأخبار بعلم الفلك والله قادر على كل شيئ ولا يعجزه شي وقد ورد في كتاب الله أن الكائنات تسبح لله قال تعالى: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا). وورد أنها

تسجد لله قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ). وهذه من أحوال الغيب التي لم يكشف الله سبحانه لنا كيفيتها لحكمة قد تخفى علينا. وفيه أدب من آداب العلم وهو أن الإنسان إذا سئل عن مسألة وهو يجهلها وكل علمها إلى الله كما فعل أبوذر رضي الله عنه أما الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يشرع للمسلم أن يكل العلم إليه بعد موته لأن علمه انقطع بموته فلا يعلم ما يقع بعد زمانه باتفاق أهل السنة قال ابن عباس رضي الله عنه: (إذا أخطأ العالم لا أدري أصيبت مقاتله). وقال مالك: (من فقه العالم أن يقول لا أعلم). وقال الشعبي: (لا أدري نصف العلم). وهذا الأدب لا يقوى عليه إلا من أوتي ورعا في العلم وقد كان شيخنا ابن باز رحمه الله يكثر من هذا الأدب في كل مجلس وأُثر عن أئمة السلف أمرا عظيما في هذا الباب فينبغي على طالب العلم أن يوطن نفسه على هذا وفي المقابل إذا تقحم الإنسان الكلام في كل مسألة بلا روية وهجم على الأحكام فهذا دليل على مرض في قلبه وقلة ورعه في العلم والله المستعان.

(٥٦) بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

١–حديث عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: (أَوَّلُ مَا بُدِىءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْوَحْيِ الرؤيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ، اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ؛ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي

الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فقَالَ: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ). فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ، فقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ، وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَاللهِ، مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقّ فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرءًا تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِخَبَرِ مَا رَأَى فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى صلى الله عليه وسلم، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ قَالَ نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرُكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا).

٢–حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيِّ، قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: (بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ) إِلَى قَوْلِهِ: (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ).

٣–حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيِّ عَنْ يَحْيَى بْنِ كَثِيرٍ، سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمنِ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُلْتُ يَقُولُونَ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ سَأَلْتُ جَابِرَ بنَ عَبْدِ اللهِ عَنْ ذَلِكَ، وَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ الَّذِي قُلْتَ، فَقَالَ جَابِرٌ لاَ أُحَدِّثُكَ إِلاَّ مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ عَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ أَمَامِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ خَلْفِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا؛ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ شَيْئًا، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، قَالَ فَدَثَّرُونِي وَصَبُّوا

عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، قَالَ فَنَزَلَتْ (يأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ).

الشرح:

في هذه الأحاديث بيان قصة ابتداء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أن الله هيأ محمدا صلى الله عليه وسلم ورباه على عينه واصطفاه من الناس وأنشأه على كريم الأخلاق وحسن الشمائل وجعل فطرته سليمة بعيدة عن الأوثان والرذائل واستله من أعلى وأشرف العرب ثم لما بلغ أشده وكمل عقله وتوافرت همته قدم له ارهاصات للوحي فجعل رؤيا الحق تتابع عليه وتكون صادقة واقعة مثل نور الصباح المنبلج الذي لا يختلف الناس فيه ثم حبب الله تعالى له اعتزال الناس والخلوة بأنسه في غار حار يتعبد لله ليالي عديدة ثم يعود إلى خديجة يتزود من متاع الدنيا ثم يعود وهكذا ولم يرد في السنة تفصيل لكيفية عبادته وتحنثه والذي يظهر أنه كان يتعبد لله بذكر الله وتمجيده والثناء عليه والتفكر في عظمته على دين الحنيفية دين إبراهيم الخليل عليه السلام وقد جاور في حراء شهرا ولما واطأ قلبه الإيمان وفتح الله عليه بخصوص المعرفة أنزل الله عليه جبريل عليه السلام وكلفه بالنبوة والرسالة وتبليغ الخلق بلزوم طاعة الله وإنذارهم بالنار لمن عصاه وتبشيرهم بالجنة لمن أطاعه وامتنع النبي صلى الله عليه وسلم عن القراءة في ابتداء التكليف ليس من باب العصيان والمخالفة وإنما فعل ذلك استغرابا واندهاشا لأن رؤية الملك أمر خارج عن طبيعة البشر وغير معهود للنبي صلى الله عليه وسلم من قبل ثم لما ضم الملك محمدا حتى بلغ به جهدا عظيما استجاب النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ الآيات وخالطت سمعه وقلبه وجميع جوارحه وكان أمرا عظيما وثقيلا على النبي صلى الله عليه وسلم لعظم ثقل الوحي فرجع النبي صلى الله عليه وسلم لخديجة وهو خائف يرجف قلبه ثم طلب من زوجه الكريمة رضي الله عنها أن تغطيه بالغطاء ليذهب عنه أثر الخوف ففعلت فاطمأن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وسكنت جوارحه وذهب عنه ما كان يجد. والخلوة للمؤمن فيها فضل عظيم ينقطع قلبه عن شواغل الدنيا ومعاشرة الخلق وينصرف بكليته للخالق ويشاهد التفكر ويحقق كمال التعظيم والتوحيد لله وهي مشروعة في المساجد والدور لمواظبة النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك أما قصد

الغيران والأودية والدور الخربة للخلوة فيها فطريقة محدثة أحدثها المتصوفة اتباعا لرهبانية الأديان الماضية وهي مخالفة لهدي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأئمة السنة ولا دليل في خلوته في حراء لأنه فعل ذلك قبل النبوة فرارا من كفر قومه ثم ترك ذلك بالكلية واستقر عمله على الخلوة الشرعية ولا يوجد في السنة حديث يدل على مشروعية الخلوة في الأماكن المنقطعة إلا ما ورد في الفرار بالدين حال انتشار الفتن قال ابن تيمية: (ولم يكن أحد من أصحابه صلوات الله عليه من بعده يأتي لغار حراء ولا يتخلفون عن الجمعة والجماعة في الأماكن المنقطعة ولا عمل أحد منهم خلوة أربعينية كما يفعله بعض المتأخرين بل كانوا يعبدون الله بالعبادات الشرعية التي شرعها لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم). وفي الحديث دليل على عظم خلق جبريل عليه السلام فقد كان خلقه عظيما له ستمائة جناح يسد الأفق وهذا يدل على أنه طيار في السماء وورد في القرآن أنه ينزل على صورة رجل فكان يتشكل وهذا يدل على كمال خلقه وكذلك سائر خلق الملائكة عظيم إلا أن الله عز وجل لم يبين صفتها. وفي هذه الأحاديث دليل صريح على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن نبيا قبل ذلك وإنما بعث بالنبوة لما بلغ الأربعين وقبل ذلك لا يثبت له نبوة ولا أحكام خاصة في الشريعة ولم يترتب على وجوده أحداث خلافا لغلاة المتصوفة الذين يثبتون أحكاما وفضائل ويزعمون أن الكون خلق من نور محمد صلى الله عليه وسلم. وفي موقف خديجة رضي الله عنها مع النبي صلى الله عليه وسلم بيان لفضلها وجهادها وحكمتها وثبات قلبها وسداد رأيها في تعزيز النبي وتسليته وتثبيته ودفع الخوف والرعب عنه بذكر فضائله وشمائله وكمال إحسانه للخلق ونصرته للحق ومن كانت هذه عادته نصره الله وتولاه وأحسن عاقبته ولم يخذله

فالإحسان من أعظم أسباب النجاة من مصارع السوء كما ورد في الآثار والحاصل أنها رضي الله عنها لم تجزع ولم تخف ولم تتأثر بالموقف ولم تستلم بل ثبتت وعملت بحسن الظن بربها وهكذا ينبغي أن تكون عليه امرأة العالم والداعية من الصبر والحكمة والثبات

وحسن الرأي لما يطرأ على زوجها من المحن والرزايا والجفاء من العامة إذا كان موقفه مبنيا على البصيرة واتباع الشرع. وفي نصيحة ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم قاعدة عظيمة في مقام الدعوة وهي أن الداعية للتوحيد والسنة في بلد الكفر والبدعة لا بد أن

يبتلى بالطرد والإيذاء وغير ذلك من صور العداء من المخالفين لأن النفوس مجبولة على عداوة من يخالف دين آبائها فلا بد أن يبتلى الداعية الموحد ويمحص ويؤذى في ماله وأهله وتشوه سمعته ويتبرأ منه قومه وقد حصل ذلك لسيد الدعاة أبي القاسم صلى الله عليه وسلم بأبي وأمي أفديه ومن لم يتعرض لشيء من ذلك فدعوته في ريب وشك وأمارة على مداهنته للعامة قال سفيان الثوري: (إذا رأيت الناسك جيرانه عنه راضون فهو مداهن).

(٥٧) الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلوات

١–حديث أَبِي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ عَنْ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِيءٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ افْتَحْ، قَالَ: مَنْ هذَا قَالَ: هذَا جِبْرِيلُ، قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ قَالَ: نَعَمْ مَعِي مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: أَوَ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ: نَعَمْ؛ فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ، عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى، فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هذَا قَالَ: هذَا آدَمُ، وَهذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ؛ فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى حَتَّى عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَقَالَ لِخَازِنِهَا افْتَحْ، فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُ؛ فَفَتَحَ قَالَ أَنَسٌ فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّموَاتِ آدَمَ وَإِدْرِيسَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللهِ

عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُثْبِتْ كَيْفَ مَنَازِلَهُمْ؛ غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ قَالَ أَنَسٌ، فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِإِدْرِيسَ قَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ فَقُلْتُ: مَنْ هذَا قَالَ: هذَا إِدْرِيسُ ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ؛ قُلْتُ: مَنْ هذا قَالَ: هذَا مُوسَى ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى فَقَالَ مَرْحَبَا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ؛ قُلْتُ: مَنْ هذَا قَالَ: هذَا عِيسَى ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ؛ قُلْتُ: مَنْ هذَا قَالَ: هذَا إِبْرَاهِيمُ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلاَمِ، فَفَرَضَ اللهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاَةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلاَةً، قَالَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعَنِي فَوَضَعَ شَطْرَهَا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا؛ فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ، فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعْتُهُ، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ لاَ يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ رَاجِعْ رَبَّكَ، فَقُلْتُ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لاَ أَدْرِي مَا هِيَ ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ).

٢–حديث مالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (بَيْنَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ، وَذَكَرَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُلِيءَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَشُقَّ مِنَ النَّحْرِ إِلَى مَرَاقِّ الْبَطْنِ، ثُمَّ غُسِلَ الْبَطْنُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ مُلِيءَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، وَأُتِيتُ بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ، الْبُرَاقُ، فَانْطَلَقْتُ مَعَ جِبْرِيلَ حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، قِيلَ مَنْ هذَا قَالَ: جِبْرِيلُ؛ قِيلَ: مَنْ مَعَكَ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ: نَعَمْ؛ قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ؛ فَأَتَيْتُ عَلَى آدَمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنِ ابْنٍ وَنَبِيٍّ، فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ قِيلَ: مَنْ هذَا قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ قَالَ: مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، قِيلَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ؛ فَأَتَيْتُ عَلَى عِيسَى وَيَحْيَى فَقَالاَ: مَرْحَبًا بِكَ

مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّالِثَةَ قِيلَ: مَنْ هذَا قِيلَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ قِيلَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَأَتَيْتُ يُوسُفَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، قِيلَ: مَنْ هذَا قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ قِيلَ: مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قِيلَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى إِدْرِيسَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ مَرْحَبًا مِن أَخٍ وَنَبِيٍّ فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ، قِيلَ: مَنْ هذَا قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ قِيلَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْنَا عَلَى هرُونَ، فَسَلَّمتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ فَأَتَيْنا عَلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، قِيلَ: مَنْ هذَا قِيلَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ قَالَ: مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى مُوسَى فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ، فَلَمَّا جَاوَزْتُ بَكَى، فَقِيلَ: مَا أَبْكَاكَ فَقَالَ: يَا رَبِّ هذَا الْغُلاَمُ الَّذِي بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَفْضَلُ مِمَّا يَدْخلُ مِنْ أُمَّتِي فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ السَّابِعَةَ، قِيلَ: مَنْ هذَا قِيلَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ قِيلَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى إِبْراهِيمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنِ ابْنٍ وَنَبِيٍّ فَرُفِعَ لِيَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ وَرُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهى، فَإِذَا نَبِقُهَا كَأَنَّهُ قِلاَلُ هَجَرٍ وَوَرَقُهَا كَأَنَّهُ آذَانُ الْفُيُولِ، فِي أَصْلِهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ، نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَفِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلاَةً، فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جِئْتُ مُوسَى، فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ قُلْتُ: فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلاَةً، قَالَ أَنَا أَعْلَمُ بِالنَّاسِ مِنْكَ، عَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، وَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ، فَرَجَعْتُ فَسَأَلْتُهُ، فَجَعَلَهَا أَربَعِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ، ثُمَّ ثَلاَثِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ، فَجَعَلَ عِشْرِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ، فَجَعَلَ عَشرًا، فَأَتَيْتُ مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَجَعَلَهَا خَمْسًا، فَأَتَيْتُ مُوسَى، فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ قُلْتُ: جَعَلَهَا خَمْسًا، فَقَالَ مِثْلَهُ، قُلْتُ: سَلَّمْتُ بِخَيْرٍ،

فَنُودِيَ إِنِّي قَدْ أَمْضَيْت فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي وَأَجْزِي الْحَسَنَةَ عَشْرًا).

٣–حديث ابنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي؛ مُوسَى، رَجُلاً آدَمَ طُوَالاً جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ؛ وَرَأَيْتُ عِيسَى رَجُلاً مَرْبُوعًا، مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، سَبِطَ الرَّأْسِ، وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ، وَالدَّجَّالَ فِي آيَاتٍ أَرَاهُنَّ اللهُ إِيَّاهُ، فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ).

٤–حديثُ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ كُنَّا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَذَكَرُوا الدَّجَّالَ أَنَّهُ قَالَ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ أَسْمَعْهُ وَلكِنَّهُ قَالَ (أَمَّا مُوسَى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ إِذِ انْحَدَرَ فِي الْوَادِي يُلَبِّي).

٥–حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ رَأَيْتُ مُوسَى وَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ رَجِلٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى فَإِذا هُوَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ أَحْمَرُ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ، وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ بِهِ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ، وَفِي الآخَرِ خَمْرٌ، فَقَالَ اشْرَبْ أَيَّهُمَا شِئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ، فَقِيلَ أَخَذْتَ الْفِطْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ).

الشرح:

هذه الأحاديث في بيان حادثة الإسراء والمعراج وهي حق اتفق المسلمون على وقوعها وهي من المعجزات الباهرة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن الأحوال الغيبية التي لا يمكن للعقل الخوض في كنهها إلا أن المؤمن الحق يؤمن بها كما جاءت في الشرع ولا يتعرض لها بالطعن والتأويل ويكل كيفيتها لله. وفي الحديث دليل على نزول جبريل عليه السلام وشقه صدر محمد صلى الله عليه وسلم وغسله بماء زمزم ثم إفراغ الحكمة والإيمان في قلبه حقيقة بلا تأويل وهذا يدل على عناية الله بفؤاد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وصيانته من الشياطين والشبهات والشهوات. وفيه دليل على أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أسري به إلى بيت المقدس ثم عرج به بروحه وجسده يقظة في رحلة إيمانية عجيبة كما قال تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا). وكان ذلك بعد البعثة وقبل الهجرة وقد اختلف أهل السير اختلافا كثيرا في تعيينها من غير قول محرر وما شاع عند المتأخرين أنها في السابع وعشرين من رجب قول خاطئ ليس عليه دليل ولم يثبت شيئ في السنة ولا في كلام الصحابة رضي الله عنهم ما يدل على تعيينها. وفي الحديث إثبات دابة البراق التي حملت النبي صلى الله عليه وسلم وطارت به وهي دابة بيضاء متوسطة في الخلق بين البغل والحمار وهي من عجائب خلق الله. وفي الحديث إثبات وجود السموات السبع وهي حق كما ورد في القرآن قال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا). وقد وردت أخبار وآثار في تعيين المسافة بينها بمسيرة خمسمائة عام قال ابن مسعود رضي الله عنه: (ما بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام وما بين كل سماء خمسمائة عام). وفوق السماء السابعة الكرسي وفوق الكرسي الماء ثم فوقه العرش والله جل جلاله فوق العرش وهذا يدل على كمال علم الله وسطانه وقدرته فلا يفوته أحد ويوجب للعبد الخوف من حسابه وعقوبته. وفي الحديث ثبوت استفتاح النبي لملك كل سماء ثم الإذن له بالصعود ورؤية محمد صلى الله عليه وسلم لمن شاء الله من الأنبياء ومخاطبته لهم حق من غير شك لا يعلم كنهه إلا الله. وفي الحديث إثبات رؤية النبي محمد لخازن مالك النار والدجال وغير ذلك من الآيات الدالة على صدقه. وقوله: (وإذا رجل قاعد عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة). هذا آدم عليه الصلاة والسلام ومعه أرواح بنيه فمن كان من أهل الجنة كان عن يمينه ومن كان من أهل النار كان عن يساره فإذا نظر إلى أهل الجنة سر وفرح وإذا نظر إلى أهل النار بكى واغتم وهذا فيه شفقة الوالد ورحمته بولده وتأثره بحاله. وفيه دليل على كثرة عدد الملائكة لا يحصيهم إلا الله لكثرة زوار البيت المعمور في السماء السابعة حيث يزوره سبعون ألف ملك كل يوم لا يعودون إليه أبدا. والحديث دليل صريح على ثبوت فرض الصلاة في الإسراء وقد فرضت خمسين ثم أشار موسى على محمد عليهما الصلاة والسلام إلى طلب التخفيف لأن أمته ما تطيق فما زال

محمد صلى الله عليه وسلم يراجع ربه حتى جعلها خمسا في الفرض وخمسين في الأجر وهذا يدل على سعة رحمة وكرم الله ولطفه بأمة محمد صلى الله عليه وسلم إذ لو كتب عليهم أكثر من خمس لشق ذلك عليهم لطبيعتهم واشتغالهم بمعاشهم. وفي الحديث دليل صريح على ثبوت شجرة سدرة المنتهى وهي شجرة عظيمة الخلق وعجيبة الصنع فائقة الجمال ورقها كآذان الفيل لعظمها وثمارها كالجرار الكبيرة ويشع منها نور عظيم ويخرج من ساقها أربعة أنهار نهران خفيان ونهران ظاهران وهي تختص بالرائحة الزكية والمذاق اللذيذ والظل المديد ويغشاها أحوال وألوان من البهاء والجمال يفتتن بها الناظر فهي من أعظم ثمار الجنة قال تعالى: (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى). وقد عرض على النبي صلى الله عليه وسلم قدحان أحدهما لبن والآخر خمر من باب الاختبار فاختار شرب اللبن فكان ذلك دليلا على هداية أمته للإسلام والاستقامة ولو شرب الخمر لضلت وغوت أمته فدين محمد دين الفطرة والصفاء والحق والرحمة وهذا من توفيق الله له وتسديده وهدايته وحفظه من الفتن. وقد ورد في الحديث وصف النبي موسى عليه السلام بكونه طويلا أسمر شعره متجعد ووصف عيسى عليه السلام بكونه مربوع الجسم سبط الشعر يميل إلى الحمرة وأما النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقد وردت أوصافه على أكمل وجه وأجمل صورة وهو من أشبه الناس بجده إبراهيم عليه السلام. والثابت المحقق عند أهل العلم من أهل السنة أنه لا يشرع الاحتفال والاحتفاء بمناسبة الإسراء وأن فعل ذلك يعد من البدع المحدثة التي ليس لها أصل في السنة وآثار الصحابة ومذاهب الأئمة المتبوعين قال ابن تيمية: (ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه جعل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها لا سيما على ليلة القدر ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور ولا يذكرونها ولهذا لا يُعرف أي ليلة كانت). ولا يشرع كذلك الاحتفال بالمولد النبوي ولا عبرة بما شاع واشتهر عند المتأخرين عن طريق الفاطميين الزنادقة في مصر في أواخر القرن الرابع ثم شاع عند الصوفية فإن دين الله لا يؤخذ من العادات والتقاليد التي استقرت عند العامة وإنما

يؤخذ من القرآن والسنة الصحيحة وآثار السلف الصالح قال ابن تيمية: (فإن هذا لم يفعله السَّلف مع قيام المقتضي له وعدم المانع منه لو كان خيرًا ولو كان هذا خيرًا محضا أو راجحا لكان السلف رضي الله عنهم أحق به منا فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيما له منا وهم على الخير أحرص وإنما كمال محبته وتعظيمه في متابعته وطاعته واتباع أمره وإحياء سنته باطنا وظاهرا). ولا نحتفل في ديننا إلا في مناسبتين عيد الفطر وعيد الأضحى كما ثبت في سنن أبي داود.

(٥٨) في ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال

١-حديثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: (ذَكَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَوْمًا بَيْنَ ظَهْرَي النَّاسِ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلاَ إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ).

٢-حديثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (أَرَانِي اللَّيْلَةَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فِي الْمَنَامِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ كَأَحْسَنِ مَا يُرَى مِنْ أُدْمِ الرِّجَالِ، تَضْرِبُ لِمَّتُهُ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ، رَجِلُ الشَّعَرِ، يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاءً، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلَيْنِ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هذا فَقَالَوا: هذَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، ثُمَّ رَأَيْتُ رَجُلاً وَرَاءَهُ جَعْدًا قَطِطًا، أَعْوَرَ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَشْبَهِ مَنْ رَأَيْتُ بِابْنِ قَطَنٍ، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلٍ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هذَا فَقَالُوا الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ).

٣-حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ فَجَلاَ اللهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ).

الشرح:

في الحديث الأول أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بوصف الدجال ليحذر أمته من اتباعه والغواية به ولم يشدد النبي صلى الله عليه وسلم في التحذير من فتنة كفتنة الدجال وقد أخبر أن كل نبي حذر أمته الدجال وورد أن فتنة الدجال أعظم فتنة في هذه الأمة وذلك لعظم خطره وكبر شره وشدة فتنته في ادعائه الربوبية وإجراء الله الخوارق على يده. وقد سُمي الدجال لأنه يغطي ويستر على الناس كفره بتمويهه ودجله فيدعي أنه إله ويدعو الناس لعبادته من دون الله بإظهار الآيات العظيمة. وقد تكاثرت الأخبار والآثار في بيان أوصاف الدجال والثابت في السنة عدة صفات ملازمة له:

الصفة الأولى: أنه أعور العين اليمنى.

الصفة الثانية: أن عينه اليمنى ليست بارزة ولا غائرة مثل العنبة الطافية وعينه اليسرى عليها ظفرة غليظة.

الصفة الثالثة: أنه مكتوب في جبهته بين عينيه كافر يقرأها كل مسلم.

الصفة الرابعة: كثيف الشعر جعد الرأس.

الصفة الخامسة: أحمر اللون جسيم.

الصفة السادسة: قصير أفحج عريض النحر.

الصفة السابعة: أجلى الجبهة أي منحسر شعره عن مقدمة رأسه.

وقد ثبت أنه عقيم ليس له ولد. ويخرج الدجال من جهة المشرق من خراسان من يهودية أصبهان ويسير معه سبعون ألفا من يهود أصبهان وأكثر أتباعه الجهال من أخلاط العجم والأعراب والنساء ثم يسير في الأرض فلا يترك بلداً إلا دخله إلا مكة والمدينة فلا يستطيع دخولها لأن الملائكة تحرسهما ويجري الله على يديه خوارق عظيمة لتعظم الفتنة به فيكون معه جنة ونار وأنهار الماء وجبال الخبز ويأمر السماء أن تمطر فتمطر والأرض أن تنبت فتنبت وتتبعه كنوز الأرض ويقطع الأرض بسرعة عظيمة كسرعة الغيث استدبرته الريح ومن أجابوه أجرى لهم الرزق والرغد ومن خالفوه أجدب أرضهم ومحق بركتهم فتنة لهم. وقد ورد في الصحيحين أن أشد الناس مقاومة

للدجال هم بنو تميم وفي هذا دليل على بقاء قبيلة بني تميم إلى آخر الزمان وموطنهم الأصلي نجد وهم متفرقون في الأمصار وهذه منقبة شريفة لبني تميم ووردت في السنة مناقب أخرى لهم وهذا الفضل خاص بمن استقام منهم على الشرع واتبع سنة النبي صلى الله عليه وسلم أما من خالف الشرع وسلك طريقة أهل الضلال من الرافضة والخوارج وغيرهم فلا فضل له وهو مؤاخذ شرعا بحسب انحرافه عن السنة وفسقه.

والدعاء بالاستعاذة من فتنة الدجال في آخر الصلاة وحفظ عشر آيات فواتح سورة الكهف والهروب منه عند خروجه والسكنى في مكة والمدينة كل ذلك يعصم المؤمن ويقيه من شروره كما ثبت في السنة. وقد ثبت أن الدجال يهلك على يد المسيح بن مريم عليه الصلاة والسلام في باب لد في فلسطين يقتله بحربته وينهزم أتباعه ويقتلهم المسلمون. وقد أنكرت الجهمية والخوارج والمعتزلة خروج الدجال وطعنوا في الأحاديث الواردة فيه بناء على مذهبهم الفاسد في تقديس العقل ورد أحاديث الآحاد ومن فسر الدجال تفسيرا معنويا بانتشار بدعة أو إلحاد أو مذهب هدام أو أنكر ما معه من الفتنة كمحمد عبده من المعاصرين وتلميذه محمد رشيد رضا فقد ضل وخالف الشرع واتبع العقل وحرف السنة ولا عبرة بقوله لشذوذه لأن السلف الصالح مجمعون على وجوده حسيا وثبوت أوصافه وخروجه في آخر الزمان وليس لأحد الخروج عن قول أهل القرون المفضلة قال ابن عبد الهادي: (ولا يجوز إحداث تأويل في آية أو في سنة لم يكن على عهد السلف ولا عرفوه ولا بينوه للأمة فإن هذا يتضمن أنهم جهلوا الحق في هذا وضلوا عنه واهتدى إليه هذا المعترض المستأخر فكيف إذا كان التأويل يخالف تأويلهم ويناقضه وبطلان هذا التأويل أظهر من أن يطنب في رده). وقوله: (إن الله ليس بأعور). دليل صريح على ثبوت العينين لله تبارك وتعالى يبصر بهما كما يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تأويل قال أبوسعيد الدارمي: (العور عند الناس ضد البصر والأعور عندهم ضد البصير بالعينين). قال تعالى: (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا). قال ابن عباس: (بعين الله تبارك وتعالى). وقد أجمع أئمة السنة على ذلك والواجب على المؤمن أن يثبت لله الأسماء والصفات الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق به ولا يسلك مسلك المبتدعة الخارجين عن طريقة السلف. وقد ذكر النبي صلى الله عليه

وسلم علامتين تميز الله جل جلاله عن المسيح الدجال الأولى: أن الدجال أعور والله ليس بأعور. الثانية: أن الله لا يرى في الدنيا وإنما يرى في الاخرة بخلاف الدجال. وفي الحديث الثاني وصف النبي صلى الله عليه وسلم النبي عيسى ابن مريم عليه السلام وهو يطوف بالكعبة. وفي الحديث الثالث أخبر أن قريشا كذبوا خبره في الإسراء والمعراج على سبيل الاستكبار وهم يعلمون أنه حق لأنهم أصلا لم يؤمنوا بنبوته ولم يصدقوه في ادعاء الرسالة فقدحوا في جميع دلائل نبوته لئلا يلتزموا طاعته والإيمان برسالة محمد يقتضي تصديق خبره والعكس بالعكس فلما كذبوه أجرى الله له آية عظيمة فكشف له المستور فوقف عند الحجر وجعل يصف علامات بيت المقدس مشاهدة مع بعده فبهتوا وانقطعوا ولكن لا تنفع الحجج والآيات الباهرة والبراهين الساطعة مع من ختم الله على قلبه وطمس بصيرته وصده وأغواه عن اتباع الحق. وكل من كذب أمرا معلوما ثابتا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ثبوتا قطعيا لا شك فيه كفر وخرج من الملة باتفاق أهل السنة ولم تنفعه عبادته وبره لأنه مكذب لله ورسوله صلى الله عليه وسلم قال الشافعي: (أما ما كان نص كتاب بيّن أو سنة مُجتمع عليها فالعذر مقطوع ولا يسع الشك في واحدٍ منهما ومن امتنع من قبوله استتيب).

(٥٩) في ذكر سدرة المنتهى

١-حديث ابْنِ مَسْعُودٍ عَنْ أَبِي إِسْحق الشَّيْبَانِيّ، قَالَ: سَأَلْتُ زِرَّ بْنَ حُبَيْشٍ عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ ما أَوْحَى) قَالَ: (حَدَّثَنَا ابْنُ مَسْعُودٍ أَنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ).

الشرح:

هذا الحديث في بيان أمر شرف الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وهو رؤيته

لروح القدس الملك جبريل عليه السلام على هيئته الحقيقة له ستمائة جناح قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل من الدرر واليواقيت وفي هذا دليل على أن الملائكة جنس طيار ودليل أيضا على عظم خلق الملائكة وهذا يدل على تمام قدرة الله وكمالها. وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل على صورته التي خلقه الله عليها مرتين الأولى المذكورة في قوله تعالى: (وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ). والثانية المذكورة في قوله تعالى: (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى). والملائكة هم أجسام لطيفة عظيمة الحجم جميلة الشكل خلقت من نور قبل البشر ذوي أجنحة لها قدرة على التشكل في الصورة ويتكلمون ويسمعون ويبصرون ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يتناسلون ولا ينامون مطهرون من الذنوب منقطعون لعبادة الله ليلا ونهارا من غير كلل ولا ملل منظمون في عبادتهم ويسكنون في السماء ولا يوصفون بالذكورة ولا بالأنوثة جنس مغاير للجن والبشر متصفون بالحياء ويتأذون من الروائح الكريهة عددهم كثير جدا لا يحصيهم إلا الله ولهم وظائف مختلفة ويموتون كما يموت الجن والإنس. وقد ورد في السنة الصحيحة أن جبريل يتصور ويتمثل على صورة بعض الآدميين وهذا من صفات الملائكة قد جعل الله لهم قدرة على التشكل وتغيير الصورة الظاهرة خلافا للإنسان. ورؤية الملائكة على حقيقتها جائز في حق النبي محمد صلى الله عليه وسلم دون ما سواه والملائكة ترى بني آدم. والإيمان بالملائكة من علم الغيب الذي يجب على المؤمن أن يجزم بثبوته ووجوده ولو لم يشاهده لورود خبره في الكتاب والسنة والواجب الذي يصح الإيمان به هو الإيمان بهم على سبيل الإجمال فيؤمن كل مسلم بأن الله خلق جنس الملائكة وأوجدهم لعبادته أما الإيمان التفصيلي بأسمائهم ووظائفهم فهذا واجب على أهل العلم على الكفاية أما إنكار وجود جنس الملائكة اعتمادا على دليل الحس فكفر بيّن لأنه تكذيب لله ورسوله فعلى المؤمن التسليم التام لأمور الغيب ولو لم يقبله عقله القاصر ولن يجد الرضا التام والطمأنينة التامة إلا بذلك. ومن أعظم ما شرف الله جبريل عليه السلام أن خصه بنزول

القرآن الكريم دون سائر الملائكة كما قال تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ). وجبريل عليه السلام أفضل الملائكة على الإطلاق وأقواهم وأعظمهم منزلة عند الله وموصوف بالقوة والأمانة وحسن الخلق وجمال الباطن والظاهر وموصوف بالكرم لكرم أخلاقه وكثرة خصاله الحميدة وله مكانة فوق سائر الملائكة وأمره مطاع في الملأ الأعلى في جنده من الملائكة المقربين. ونحن أهل الإسلام نحب جبريل عليه السلام لأن الله أمرنا بتوليه ومحبته ولأنه ولي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومبلغ القرآن الذي به تحيى نفوسنا ولما له من الصفات الحسنة أما اليهود قاتلهم الله فيبغضون جبريل ويعادونه ولا يتولونه كما قال تعالى: (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ).قال مجاهد: (قالت يهود: يا محمد ما ينزل جبريل إلا بشدة وحرب وقتال وإنه لنا عدو فنزلت هذه الاية). ولا حرج على الصحيح بالتسمي بجبريل وأسماء الملائكة لأن الأصل الإباحة ولم يرد نهي في الشرع ولا دليل على الكراهة.

(٦٠) معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)، وهل رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء

١-حديث عَائِشَةَ عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ يَا أُمَّتَاهْ هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم رَبَّهُ فَقَالَتْ (لَقَدْ قَفَّ شَعَرِي مِمَّا قُلْتَ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلاَثٍ مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ (لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)، (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)؛ وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا)؛ وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ كَتَمَ فَقَدْ

كَذَب، ثُمَّ قَرَأَتْ (يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) الآية؛ وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ).

٢-حديث عَائِشَةَ قَالَتْ: (مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ، ولكِنْ قد رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَخَلْقُهُ سَادٌّ مَا بَيْنَ الأُفُقِ).

الشرح:

موضوع الحديثين مسألة رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه بعينه في الدنيا ليلة الإسراء وهذه المسألة من مسائل الخلاف بين أهل السنة والجماعة وهي مسألة فرعية لا توجب الإنكار والتضليل للمخالف لأنها محتملة في الدلالة والنظر وثبت فيها اختلاف الصحابة رضي الله عنهم ولم يجمعوا عليها والضابط في المسائل الاعتقادية التي يسوغ فيها الخلاف هو كل مسألة لم يتفق عليها السلف ولم يضللوا المخالف فيها وليس فيها نص صريح فالأمر فيها واسع كمسألة المفاضلة بين عثمان وعلي رضي الله عنهما في غير الخلافة قال ابن تيمية: (وإن كانت هذه المسألة مسألة عثمان وعلي ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر ثم عثمان ثم علي ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله). والمرجع في تعيين ذلك إلى أئمة السنة وليس للمتأخر حق في الاجتهاد في هذا الباب وقد حفظ الاختلاف في مسائل يسيرة جدا بين السلف في هذا الباب. ومسألة رؤية النبي لربه فيها نوع اشتباه وقد اختلف الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم فيها ومن نفى اختلاف الصحابة رضي الله عنهم فقد أخطأ فذهب ابن عباس وأنس بن مالك رضي الله عنهما إلى إثبات رؤية النبي لربه واستدلوا بظاهر الأدلة الواردة في هذه المسألة وذهبت عائشة وابن مسعود وأبوذر رضي الله عنهم إلى نفي الرؤية وقد خطأت عائشة رضي الله عنها من زعم الرؤية ونسبت له الوهم وهذا القول هو الصحيح إن

شاء الله لأن الآيات محكمة في نفي رؤية الرسل لربهم وأن الله لا يدرك بالأبصار في الدنيا وقانون الدنيا من ضعف الانسان وعدم قدرته على تحمل رؤية الله يدل على ذلك ولذلك لما طلب موسى عليه السلام رؤية ربه فتجلى الله للجبل خر موسى مغشيا عليه كما قال تعالى: (فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ). وأما الآيات والأحاديث الواردة في هذا الباب فليست صريحة في إثبات الرؤية وإنما هي مجملة والأصل نفي الرؤية فنبقى على الأصل ولا ننتقل عنه إلا بنص صريح بل قد ورد رواية صريحة في مسلم تدل على نفي الرؤية كما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه حين سأل رسول الله قال يا رسول الله: هل رأيت ربك قال: (رأيت نورا). وفي لفظ قال: (نور أنى أراه). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت). رواه مسلم. والمرئي في قوله تعالى: (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى). هو جبريل على الصحيح من كلام المحققين من أهل التفسير. وبينت عائشة رضي الله عنها حقيقة عقدية ثابتة بالقرآن والسنة والإجماع وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم شيئا من الغيب ألبتة إلا ما أطلعه الله عليه فهو بشر كسائر البشر لا يكشف المستور ولا يدرك الغيبيات لأن علم ذلك من خصائص الله فلا يعلم الغيب ولا يحيط بكل شيئا علما إلا الله كما قال تعالى: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ). وهذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة أما غلاة المتصوفة فقد خالفوا الحق وزعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب ويطلع على الحقائق المغيبة وبنوا على هذا المعتقد الفاسد مسائل وأحوال وقد أنكر عليهم أئمة السنة ومن اعتقد أن الرسول يعلم الغيب فهو مكذب للقرآن والسنة.

وبينت عائشة رضي الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أدى الأمانة ونصح الأمة وبلغ الرسالة على أكمل وجه وأحسن بيان وقد أثنى عليه الله وزكاه ورضي فعله واصطفاه وألحقه بالرفيق الأعلى وكان قد شاع عند بعض الجهال أن الرسول صلى الله عليه وسلم خص آل بيته بشيء من العلم ولم يبلغه للناس فأنكر

ذلك علي بن طالب وابن عباس رضي الله عنهما والمسلمون مجمعون على هذا الأصل وهو من أعظم الأصول التي ترد به البدع المحدثة ولهذا قال مالك: (من أحدث في هذه الأمة شيئا لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله خان الرسالة لأن الله يقول: (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)). وليس بين مدع لصحة مذهبه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم نسب إنما النسب هو الإتباع ومن ادعى نسبا لمذهبه فهو كاذب والنبي صلى الله عليه وسلم ورث علما نبويا وجعله مشاعا بين المسلمين ولم يخص أحدا بشيئ وأكمل الناس اتباعا له وأنصحهم وأأمنهم على دينه الخلفاء الراشدون أبوبكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ولذلك أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بهم في حديث العرباض رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبد فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضّوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة). رواه أبو داود والترمذي. فمن اتبعهم أصاب السنة ومن أعرض عنهم أصاب البدعة. وزعمت الرافضة والمعتزلة أن الرسول صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من الحق لتمرير بدعتهم ومن أساء الظن بالرسول صلى الله عليه وسلم وطعن في أمانته فقد أساء الظن بربه. وفي الحديث دليل على استعمال سبحان الله حال التعجب من شيء وكان الصحابة يتعجبون بسبحان الله ولا إله إلا الله. وقد كانت الفقيهة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تنافح عن دين الله وتبين الحق وترد على من خالف القرآن والسنة وهكذا ينبغي للعالم أن يرد على المخالف مهما كان ويبطل نسبة البدع والأقوال المنكرة لدين الله عز وجل قال ابن تيمية: (ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين حتى قيل لأحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب اليك أو يتكلم في أهل البدع فقال: إذا قام وصلى واعتكف فانما هو لنفسه واذا تكلم في أهل البدع

فإنما هو للمسلمين هذا أفضل فبيَّن أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله).

(٦١) إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى

١-حديث أَبِي مُوسَى، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلاَّ رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ).

الشرح:

في هذا الحديث بيان لمسألة عظيمة من أشرف المسائل في باب الصفات وهي رؤية المؤمنين لله تبارك وتعالى في الآخرة فقد ثبت ذلك في القرآن والسنة الصحيحة والإجماع قال تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ). وقال تعالى: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ). وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الزيادة هنا بالنظر إلى وجه الله الكريم. وقوله تعالى: (كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ). قال الشافعي: (لما حجب قوما بالسخط دل على أن قوما يرونه بالرضا). وأما السنة فقد تواتر هذا المعنى في الأحاديث وقد حكى جماعة من أهل العلم الإجماع على ثبوت الرؤية في الآخرة قال ابن تيمية: (وأما الجهمية من المعتزلة وغيرهم فيمتنع على أصلهم لقاء الله لأنه يمتنع عندهم رؤية الله في الدنيا والآخرة وخالفوا بذلك ما تواترت به السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم وما اتفق عليه الصحابة وأئمة الإسلام من أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة). وقد عظم الخلاف في هذه المسألة بين أهل السنة والمعطلة وكثر فيها التصنيف لأهل السنة وصار إثباتها شعارا لهم يميزهم عن سائر طوائف

المعطلة واشتهر عن الجهمية والمعتزلة والإباضية والرافضة والزيدية إنكار رؤية المؤمنين لربهم بشبه واهية وقواعد فاسدة من أشهرها أن القول برؤية الله يقتضي أنه محدود وأنه في جهة وهذا من أوصاف الحادث المخلوق وهذا باطل لأنه ظن مخالف ليقين الكتاب والسنة ولأن الله ليس كمثله شيء ولا يقاس بأحد من مخلوقاته في صفاته كما لا يقاس في ذاته ولا في أفعاله واستدلوا على مذهبهم الباطل بآيات من القرآن ولا يصح استدلالهم بها لأن الدليل خارج عن المدلول ولأنه لا ينافي الأدلة الثابتة بوجه من الوجوه وليس هذا موضع بيانه وأهل البدع عند التأمل لا يعتمدون في باطلهم على دلالة الكتاب والسنة إنما يعتمدون على أقيسة وشبه باطلة ثم يلبسونها لباس الشرع ويتظاهرون بالاتباع والرسول صلى الله عليه وسلم أنصح وأفصح وأصدق الخلق وهو أشد الناس غيرة على حرمة ربه ولا يمكن أن ينسب لمولاه وخالقه ما يقتضي النقص والعيب بوجه من الوجوه وهو من أعرف الناس وأتقاهم لربه وقد أثبت لله وإليه الرؤية وهو لا ينطق عن الهوى فوجب التسليم له وعدم معارضته بالعقل القاصر والظن الكاذب. وحرف الأشاعرة معنى الرؤية فوافقوا أهل السنة في إثباتها من جهة اللفظ ووافقوا أهل البدع في تعطيلها من جهة المعنى وحقيقة مذهبهم يؤول إلى نفي الرؤية فهم يفسرون الرؤية بالعلم لا بالبصر ويقولون الرؤية على غير جهة وإنما تكون إدراكا وهذا المذهب مخالف لصريح القرآن والسنة وآثار الصحابة مع ما فيه من مخالفة لقول إمامهم أبي الحسن الأشعري الذي وافق أهل الحديث في إثبات الرؤية على نحو ما ورد في النصوص والأشاعرة مُقلِّدةُ الكُلَّابية مع انتشار مذهبهم وكثرة حجاجهم وادعائهم التحقيق إلا أن مذهبهم عند التأمل قائم على التلفيق في الأصول بين مذهب السلف ومذهب المعتزلة والتناقض فيه ظاهر ومسلكهم حادث في تفسير النصوص بعد القرون المفضلة في أوائل القرن الرابع ينازعون أهل الحديث في تفسير الحديث وهم أهل الاختصاص فيه الذين ورثوا الفهم الصحيح عن الصحابة رضي الله عنهم بإسناد متصل والصحابة تلقوه عن النبي صلى الله عليه وسلم. وفي الحديث إثبات رداء الكبرياء لله عز وجل لعظمته وجلاله

وكمال قدرته وسلطانه وتصرفه على ما يليق به سبحانه ولا نكيفه ولا نؤوله كعادة أهل البدع قال تعالى: (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). فهو المستحق للتعظيم التام الذي يوجب فقر العبد وعجزه وخضوعه لربه أما المخلوق الفقير العاجز فلا يصلح له الكبر ولا يليق به ولذلك ورد الزجر والوعيد لمن نازع الله في صفته كما في صحيح مسلم: (يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار). واللائق في حق المخلوق التواضع وترك الفخر كما أرشد النبي صلى الله عليه وسلم بذلك كما في صحيح مسلم. وفي الحديث بيان نعيم المؤمنين في الآخرة جنتان مصنوعتان من الذهب بكل ما فيهما وهما خاصتان بالمقربين الذين فعلوا الفرائض والسنن وتركوا المحرمات والمكروهات وجنتان مصنوعتان من الفضة بكل ما فيهما وهما خاصتان بأهل اليمين الذين فعلوا الفرائض وتركوا المحرمات ولم يحرصوا على أداء السنن واجتناب المكروهات وقد فضل الله الجنتين الأولين على الأخريين في كل شيء فلكل طائفة منزلة ودرجة في النعيم بحسب أعمالهم في الدنيا وفضل الله واسع ومع هذا النعيم العظيم إلا أن اللذة الكاملة والأنس التام وسعادة الروح والفرح والسرور في النظر إلى الرحمن ولن يعط المؤمن شيء في الآخرة أحب إليه من النظر لوجه الكريم كما ورد في صحيح مسلم: (قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه. قال: فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه). وهذا النعيم ينسيهم سائر نعيم الجنة قال ابن القيم: (كمال النعيم في الدار الآخرة أيضًا به سبحانه برؤيته وسماع كلامه وقربه ورضوانه لا كما يزعم من يزعم أنه لا لذة في الآخرة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والملبس والمنكوح). فنسأل الله الكريم ألا يحرمنا وإخواننا المؤمنين من تلكم النعمة الجليلة.

(٦٢) معرفة طريق الرؤية

١–حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّاس قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ: (هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ قَالُوا لاَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: فَهَلْ تمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ قَالُوا لاَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ مَنْ كَانَ يَعْبدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْقَمَر، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّوَاغِيتَ وَتَبْقَى هذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ هذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ أَنْتَ رَبُّنَا، فَيَدْعُوهُمْ، وَيُضْرَبُ الصِرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرَّسُلِ بِأُمَّتِهِ، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلاَّ الرُّسُلُ، وَكَلاَمُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ قَالُوا نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلاَّ اللهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللهُ رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَمَرَ اللهُ الْمَلاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ، فَيُخْرِجُونَهُمْ، وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّار، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلاَّ أَثَرَ السُّجُودِ؛ فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ قَدِ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ؛ ثُمَّ يَفْرُغُ اللهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، مُقْبِلاً بِوَجْهِهِ قِبَلَ النَّارِ، فَيَقُولُ يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَقُولُ هَلْ عَسِيتَ إِنْ فُعِلَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَ ذَلِكَ فَيَقُولُ لاَ وَعِزَّتِكَ، فَيُعْطِي اللهَ مَا يَشَاءُ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ؛ فَيَصْرِفُ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ فَإِذَا أَقْبَلَ بِهِ عَلَى الْجَنَّةِ رَأَى بَهْجَتَهَا، سَكَتَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ قَالَ يَا رَبِّ قَدِّمْنِي عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ، أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنْتَ سَأَلْتَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ لاَ أَكُونَنَّ أَشْقَى خَلْقِكَ؛ فَيَقُولُ فَمَا عَسِيتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَهُ فَيَقُولُ لاَ وَعِزَّتِكَ لاَ أَسْأَلُ غَيْرَ ذَلِكَ؛ فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاق،

فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا بَلَغَ بَابَهَا فَرَأَى زَهْرَتَهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ النَّضْرَةِ والسُّرُورِ فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ، فيَقُولُ يَا رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللهُ: وَيْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ لاَ تَجْعَلْنِي أَشْقَى خَلْقِكَ، فَيَضْحَكُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ، ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ تَمَنَّ، فَيَتَمَنَّى، حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ أُمْنِيَّتُهُ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مِنْ كَذَا وَكَذَا أَقْبَلَ يُذَكِّرُهُ رَبُّهُ؛ حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ قَالَ اللهُ تَعَالَى: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ).

٢–حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ: (هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا قُلْنَا لاَ قَالَ: فَإِنَّكُمْ لاَ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا ثُمَّ قَالَ: يُنَادِي مُنَادٍ: لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ، وَأَصْحَابُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، وغُبَّرَاتٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ للهِ صَاحِبَةٌ وَلاَ وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُون قَالُوا نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ اشْرَبُوا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ فَيَقُولونَ كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَال كَذَبْتُمْ لَمْ يَكُنْ للهِ صَاحِبَةٌ وَلاَ وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُون فَيَقُولُونَ نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ اشْرَبُوا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ مَا يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاس فَيَقولُونَ فَارَقْنَاهُمْ وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ الْيَوْمَ، وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي: لِيَلْحَقْ كلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا؛ قَالَ فَيَأْتِيهِمُ الْجَبَّارُ، فِي صُورَةٍ غَيْرَ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ؛ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ أَنْتَ رَبُّنَا فَلاَ يُكَلِّمُهُ إِلاَّ الأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَه آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ فَيَقُولُونَ السَّاقُ؛ فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً؛ فَيَذْهَبُ كَيْما يَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجِسْمِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْجِسْرُ قَالَ مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ

الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدَ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الْحَقِّ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ فَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا وَبَقِيَ إِخْوَانُهُمْ، يَقُولُونَ رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا وَيَصُومُونَ مَعَنَا وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا؛ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ؛ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ؛ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَاقْرَءُوا (إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا) فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ فَيَقُولُ الْجَبَّارُ بَقِيَتْ شَفَاعَتِي، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدِ امْتُحِشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ إِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ، فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمِ الْخَوَاتِيمُ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلاَءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلُهُ مَعَهُ).

الشرح:

في هذين الحديثين إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم عن ذلك فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بثبوت الرؤية لربهم في الآخرة رؤية تامة واضحة لا لبس فيها ولا غبش كما يرون القمر صحوا في الليلة الصافية التي لا قتر فيها ولا سحاب يمنعان من رؤيته وهذا تشبيه حال الرؤية بالرؤية ولا يقتضي تشبيه المرئي بالمرئي بوجه من الوجوه لأن الله تقدس ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وقد كان صلى الله عليه وسلم من كمال فصاحته ونصحه يستعمل الأمثال الحسية في إيصال الحق للخلق وهكذا ينبغي لعلماء أهل السنة أن يبينوا للناس الإعتقاد الوارد في الكتاب

والسنة في أحسن بيان وأتم تصوير لكن ينبغي على المتكلم أن يحذر في استعمال الألفاظ من الإساءة لمقام الله عز وجل ومقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يشعر ويحرم تصوير مشاهد الآخرة وأحوال البرزخ في الإنتاج السينمائي وغيره من الوسائل العصرية لأن ذلك من الغيب الذي حجبه الله عنا ولأن العقل البشري لا يمكنه أن يتصور ذلك أو يقاربه مهما بلغ في الذكاء ولأن الخوض في هذا المجال يترتب عليه مفاسد وينافي مقصود الشرع والشارع الحكيم بين لنا طرفا يسيرا من مسائل الغيب للإيمان والزجر والتخويف والاتعاظ. والمؤمنون يرون ربهم في موقفين الأول في عرصات القيامة ويكون نظر هيبة وإجلال والثاني في الجنة ويكون نظر لطف وجمال ولأهل الجنة مجلس كل جمعة يرون ربهم قال ابن مسعود رضي الله عنه: (سارعوا إلى الجمعة فإن الله يبرز لأهل الجنة في كل جمعة في كثيب من كافور فيكونون في قرب منه على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا). رواه الدارقطني. والذي يظهر أن أهل الجنة يتفاوتون في نعيم النظر إلى الله على حسب منزلتهم قال ابن تيمية: (نفس الحديث المحتج به دل على أن لأهل الجنة رؤية في مواطن عديدة فإنه قال: (وأعلى أهل الجنة منزلة من يرى الله كل يوم مرتين غدوة وعشية). فإذا كانت هذه للأعلى فمفهومه أن الأدنى له دون ذلك ولا يجوز أن يقصر ما دون ذلك على رؤية الجمعة لأنه لا دليل عليه بل يجوز أن يراه بعضهم كل يوم مرة وبعضهم كل يومين مرة وبعضهم أكثر من ذلك والحكمة تقتضي ذلك فإن يوم الجمعة يشترك فيه جميع الرجال من الأعلين والمتوسطين ومن دونهم وكل يوم مرتين للأعلين فالذين هم فوق الأدنين ودون الأعلين لا بد أن يميزوا عمن دونهم كما نقصوا عمن فوقهم). وفي سؤال الصحابة رضي الله عنهم دليل على أن مسائل الإعتقاد تؤخذ من الوحي ولا مدخل للعقل والقياس والوجد في معرفتها والإحاطة بها وهذا من أعظم ما يميز أهل السنة عن أهل البدع في هذا الباب. وفيهما دليل على أنه ينادى يوم القيامة بين الأمم كل يتبع ما كان يعبده ويتبعه في الدنيا جزاء لفعله فيتبع أهل الأوثان أوثانهم ويتبع أهل الطواغيت طواغيتهم ويتبع أهل الكتب المحرفة اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم وهكذا كل أمم الكفر تتبع آلهتهم التي كانوا يعبدونهم من دون الله ثم يجادلهم الله وهو أعلم بهم ليبين كذبهم عليه وظلمهم في نسبة الولد له فيبهتهم ويقطع حجتهم

ويبين لهم أنه واحد لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ليتحسروا ويزدادوا غما وهما ثم يقذفون في النار تلتهمهم لأنهم كفروا بالله والنار مأوى الكافرين ويبقى في عرصة القيامة كل من ينتسب للإسلام الصادق والكاذب المؤمن والمنافق فيمتحنهم الله امتحانا عظيما ويأتيهم عز وجل في غير صورته الأولى المعهودة لأهل الإيمان والله قادر على كل شيء لا يعجزه شيء فيلهمهم الله ويقولون أنت ربنا ولا يتكلم في هذه الموقف العظيم إلا الأنبياء لكمال معرفتهم بربهم وعلو منزلتهم فيسألهم الله جل جلاله هل عندكم علامة عظيمة تميزون بها ربكم فيقولون نعم صفة الساق فيكشف الله عز وجل لهم عن ساقه فيسجد له كل مؤمن صادق في متابعة نبيه في الدنيا في الإيمان والعمل الصالح أما المنافق فيذهب ليسجد ولا يستطيع لأن الله يجعل ظهره وأسفله طبقا واحدا لا ينثني ويؤمر بالسجود مع عجزه من باب التبكيت والتوبيخ له ثم يكون مصيرهم إلى النار ثم ينصب الصراط على جهنم وهو أحد من السيف وأدق من الشعرة ومدحضة مزلة لا يثبت عليه أحد إلا من وفقه الله ويكون عليه خطاطيف عظيمة جدا مثل شوك السعدان تخطف المارين عليه فمنهم من يمر كلمحة البصر ومنهم كالبرق ومنهم كالريح ومنهم كالجياد السريعة ومنهم كالرجل العداء ومنهم كالرجل الماشي ومنهم كالذي يحبو يتفاوتون في سرعة مرورهم على الصراط على حسب كثرة عملهم الصالح في الدنيا وهم على ثلاثة أقسام قسم يمر بسرعة وينجو من العذاب لا يمسه شيء لكثرة صلاحه وقسم يمر ببطء وتخدشه الخطاطيف بشيء يسير من العذاب لتطهره ثم ينجو من جهنم وقسم تلقيه الخطاطيف في النار لكثرة ذنوبه ثم يخرجه الله بالشفاعة ولا يخلد في النار ولا يجوز على الصراط إلا المسلمون أما الكفار والمنافقون فيدخلون النار ابتداء بلا مرور قال الله تعالى: (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا). قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: (ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهريها وورود المشركين أن يدخلوها). وهذا قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ونصره ابن رجب الحنبلي. وفي الحديثين شفاعة المؤمنين لإخوانهم أهل الكبائر الذين دخلوا النار فيشفعون لإخوانهم لمقتضى الإخوة والرحمة والإحسان ويأذن الله لهم بالشفاعة ويقولوا أخرجوا الأعلى منهم إيمانا ثم الأدنى فالأدنى إلى آخرهم من النار ثم يدخلهم الجنة. والحديث نص على أن عذاب المؤمنين في النار لا

يمس الوجه لأنه من أثر السجود لشرفه كما جاء مفسرا في رواية مسلم: (أن قوما يخرجون من النار يحترقون فيها إلا دارات وجوههم). وهذا يدل على فضل الصلاة ولا تمس النار عينا بكت من خشية الله ولا عينا باتت تحرس في سبيل الله كما ورد في الترمذي ولا تمس النار قدمين اغبرتا في سبيل الله كما في الترمذي. وفي الحديث دليل صريح على ثبوت صفة الساق لله عز وجل وهي من الصفات الخبرية الذاتية اللائقة بالله سبحانه من غير تشبيه ولا تعطيل قال الله تعالى: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ). وقد فسر ابن مسعود وأبوهريرة وأبوسعيد الخدري رضي الله عنهم الساق في الآية بساق الله وهذا أصح ممن فسره بالشدة لأن التفسير بدلالة الحديث مقدم على التفسير بدلالة اللغة وليس قول من فسرها بالشدة يعد من صرف الآية عن ظاهرها كما يدعيه المعطلة لأن لفظ الساق وردت نكرة ليست مضافة لله فالآية ليست صريحة في نسبة الساق لله والصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في تفسير دلالة الآية على صفة الساق ولم يختلفوا في إثبات صفة الساق لله عز وجل ولم يرد عن أحدهم نفي الصفة وقد صحت بذلك الأحاديث الصريحة واتفق على ذلك أئمة السنة وقد ضل الأشاعرة وغيرهم من المؤولة في هذا الباب وزعموا أن اثبات الساق لله يقتضي التشبيه بالمخلوق وفسروا الساق بشدة الأمر وصنيعهم تحريف لدلالة الحديث ومخالف لمذهب السلف وقد ثبت في السنة لله عز وجل صفة الوجه والعينين واليدين والساق والقدم والأصابع والقول بها شعار لأهل السنة ونفيها شعار لأهل البدعة وليس إثباتها يقتضي التشبيه بوجه من الوجوه قال إسحاق بن راهويه: (إنما يكون التشبيه إذا قال: يد مثل يدي أو سمع كسمعي فهذا تشبيه وأما إذا قال كما قال الله: يد وسمع وبصر فلا يقول: كيف ولا يقول: مثل فهذا لا يكون تشبيهاً قال تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)). وقد زلت أقدام كبار في هذا الباب مع حرصها على اتباع الحق والموفق من وفقه الله وعصمه من الزلل. ويجب على الموحد السني أن يثبت من الأسماء والصفات كل ما أثبته الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من غير تمثيل ولا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل امتثالا لقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ). فيثبت المعنى حقيقة ويكف عن الكيفية ولا يتعرض لها ويسلم بالغيب ولا يعترض على الشرع لتسلم

عقيدته ويصح مذهبه ويلقى الله عز وجل على دين رسوله صلى الله عليه وسلم غير مبدل له. وأما إثبات الصفات مع تفويض المعنى لله والتوقف فيه فمذهب حادث ليس له أصل في الكتاب والسنة وآثار الصحابة رضي الله عنهم ولم يقل به أحد من أئمة السلف بل هو مخالف لاعتقادهم وأصحابه أرادوا أن يتوسطوا بين المثبتة والمعطلة فلفقوا فقالوا نثبت اللفظ ونسكت عن المعنى وحقيقة مذهب التفويض تعطيل للصفة لأن اثبات الاسم بلا معنى محدد لا فائدة فيه كمن أنكر الصفة أصلا فكيف يثبت المفوض أمرا لا يفهم معناه ولا يدرك حقيقته وفيه تجهيل لله عز وجل وتجهيل لرسوله صلى الله عليه وسلم وتعطيل للتدبر في القرآن وتسفيه بعقول الصحابة الذين تلقوا كلاما لا يعقلون معناه والله خاطبنا بالصفات لنؤمن بها ونتعبد بمعناها وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم بعض الصفات كما ثبت في الصحاح والمفوضة شر من المعطلة لأن مذهبهم حيلة وذريعة لنفي الصفات بلسان الإثبات والورع قال ابن تيمية: (فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد). والحاصل أن مذهب التفويض يصور المسلم في صورة العابد الجاهل الأحمق الذي يعبد ربا لا يعرف صفاته ويردد ألفاظا ولا يعي معناها. ومن نسب للإمام أحمد وغيره من أئمة السلف مذهب التفويض فقد كذب ودلس واتبع المتشابه ورد المحكم وتنكب جادة السلف وسلك طريقة أهل البدع قال ابن عبد البر: (أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الوارده كلها في القرآن والسنة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز الا أنهم لا يكيفون شيئا من ذلك ولا يحدون فيه صفة محصورة وأما أهل البدع الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرها ولا يحمل منها شيئا على الحقيقه). والتفويض نشأ في رواق الأشاعرة والماتُريدية في أوائل القرن الرابع وانخدع به قلة من المنتسبين للسنة الذين لم يكونوا راسخين في معرفة مذهب السلف.

(٦٣) إِثبات الشفاعة وإِخراج الموحدين من النار

١-حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا قَدِ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الْحَيَا أَوِ الْحَيَاةِ (شَكٌّ من أَحد رجال السَّنَد) فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَأَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً).

الشرح:

في هذا الحديث بين النبي صلى الله عليه وسلم مصير الناس يوم القيامة وأنهم صنفان صنف يدخلون الجنة وهم أهل الإيمان الذين رجحت حسناتهم على سيئاتهم وصنف يدخلون النار وهم فريقان فريق يخلد فيها أبدا لا يخرج منها وهم الكفار والمنافقون وفريق من المؤمنين الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم ولم يعفو الله عنهم يعذبون في النار فترة من الزمن لتطهر ذنوبهم ويشفع فيهم الأنبياء والملائكة والصالحون ويشفع الله عز وجل ثم يأذن الله بإخراجهم من النار بعد أن يتفحموا من لهيب النار ويدخلون الجنة برحمته ولطفه ثم يلقون في نهر الحياة في الجنة ثم تنبت أجسادهم من جديد ويذهب السواد عنهم وتبقى فيهم علامة على دخولهم النار خاتم في رقابهم ويسمون بالجهنميين وهذا يدل على عظم شؤم المعصية نسأل الله السلامة. ودلت السنة على أن الذين يكثرون اللعن في الدنيا يحرمون من نعمة الشفاعة والشهادة يوم القيامة كما في صحيح مسلم: (لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة). وفي هذا الحديث العظيم دليل صريح على ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر يوم القيامة وقد اتفق أهل السنة والجماعة على

ذلك خلافا للخوارج والمعتزلة المنكرين للشفاعة لأنها تنقض أصلهم الباطل في تخليد أهل الكبائر النار والعياذ بالله ولأنهم يعتمدون في مذهبهم على ظاهر القرآن ولا يستدلون بالسنة والسنة صريحة في إبطال مذهبهم المقتضي لنفي كمال رحمة الله والتضييق على عصاة المسلمين وإيقاعهم في الحرج وتخليدهم في النار كالكفار قال ابن تيمية: (واحتج بكثير منه (يعني بالأدلة النافية للشفاعة) الخوارج والمعتزلة على منع الشفاعة لأهل الكبائر إذ منعوا أن يشفع لمن يستحق العذاب أو أن يخرج من النار من يدخلها ولم ينفوا الشفاعة لأهل الثواب في زيادة الثواب ومذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة إثبات الشفاعة لأهل الكبائر والقول بأنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان وأيضا فالأحاديث المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الشفاعة فيها استشفاع أهل الموقف ليقضى بينهم وفيهم المؤمن والكافر وهذا فيه نوع شفاعة للكفار). وقد تواترت السنة بثبوت الشفاعة وفي مسند أحمد من حديث أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي). وقد كان الصحابة رضي الله عنهم ينكرون على الخوارج إنكارهم الشفاعة قال أنس رضي الله عنه: (يخرج قوم من النار ولا نكذب بها كما يكذب بها أهل حروراء يعني الخوارج). وأما ما يستدل به المنكرون للشفاعة من قوله تعالى: (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ). ونحوها من الآيات فلا حجة فيها على مذهبهم لأن المراد فيها نفي الشفاعة عن الكفار المكذبين لأن الله بمقتضى عدله لا يرضى قبول الشفاعة فيهم ولا منهم لأنهم ليسوا بأهل لرحمته وعفوه مطلقا. والشفاعة الواردة في النصوص على أنواع:

الأولى: الشفاعة في تخفيف العذاب على كافر معين وهذه خاصة في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب.

الثانية: الشفاعة لأهل الموقف في تخفيف قيامهم وتعجيل القضاء وهذه خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

الثالثة: الشفاعة فيمن استحق دخول النار من أهل الكبائر ألا يدخلها وهذه تكون للنبي صلى الله عليه وسلم.

الرابعة: الشفاعة في رفع درجات أهل الجنة ممن دخلها فوق ما يستحقها.

الخامسة: الشفاعة في دخول أقوام الجنة بغير حساب كما دعا النبي صلى الله عليه وسلم لعكاشة بن محصن أن يجعله من السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بلا حساب.

السادسة: شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في الإذن بدخول المؤمنين للجنة.

السابعة: الشفاعة فيمن دخل النار بإخراجه وهذه عامة للملائكة وللأنبياء والمؤمنين.

الثامنة: شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة ممن سكنها محتسبا ومؤثرا لها على سائر البقاع صابرا على ما يحصل له من المشقة والعوز كما ثبت في صحيح مسلم.

والحاصل أن أهل السنة والجماعة وسط في باب الشفاعة بين أهل البدع الذين يغلون في مشائخهم ويجعلونهم وسطاء لله ويتقربون لهم بالقربات ويعتقدون أنهم يشفعون لهم مطلقا بغير إذن كحالهم في الدنيا وبين الخوارج المنكرين لأصل الشفاعة فأهل السنة يثبتون الشفاعة لمن كان أهلا لها بشرط أن يأذن بها ويرضى عن الشافع والمشفوع كما قال الله تعالى: (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ). والشفاعة الثابتة في القرآن والسنة خاصة بمن مات على التوحيد ولم يشرك بالله شيئا أما من مات على الشرك أو الكفر أو النفاق فإنه يخلد في النار وتحرم عليه الجنة ولا تنفعه الشفاعة قال الله تعالى: (إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ). وهناك قوم آخرون يقال لهم أهل الأعراف استوت حسناتهم وسيئاتهم فتجاوزت بهم حسناتهم عن النار وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة يوقفون على سور مرتفع يفصل بين الجنة والنار ويطول وقوفهم ويشتد خوفهم ويزداد غمهم فإذا التفتوا إلى الجنة ورأوا نعيمها وريحها سألوا الله دخولها وإذا التفتوا إلى النار ورأوا حرها وعذابها استعاذوا منها فيحبسهم الله وقتا ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته قال تعالى فيهم: (وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ). قال الحسن: (والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم). فنسأل الله برحمته وكرمه أن لا يجعلنا منهم

ويدخلنا الجنة بغير حساب ولا عذاب.

(٦٤) آخر أهل النار خروجا

١-عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ كَبْوًا فَيَقُولُ اللهُ اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ اذْهَب فَادْخُلِ الْجَنَّةَ فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ اذْهَب فادْخُلِ الْجَنَّةَ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا، أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ تَسخَرُ مِنِّي أَوْ تَضْحَكُ مِنِّي وَأَنْتَ الْمَلِكُ فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ وَكَانَ يُقَالُ: ذَلِكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً).

الشرح:

في هذا الحديث العجيب بيان قصة آخر رجل من أهل التوحيد يخرج من النار بعد أن نال عذابه المستحق بعد أن طهرت النار ذنوبه وأزالت أوساخ معاصيه فأصبح طيبا صالحا لدخول الجنة فيخرج منها مشيا بطيئا تارة يمشي وتارة يكبو وتلسعه النار لهول الموقف وشدة النار وثقله فيأمره الله ويأذن له في دخول الجنة فيأتي الجنة بعد أن كان يائسا من دخولها فيخيل له أن أهل الجنة قد ملأوا منازلها ودورها وأسواقها مع عظمها واتساع مساحتها ثم يرجع إلى ربه محبطا فيخبره أنه لم يجد مكانا فيها فيأمره بالرجوع ثانيا ويحصل معه في المرة الثانية كما حصل في المرة الأولى ثم يأمره ثالثا ويخبره أن له ملكا في الجنة عشرة أضعاف الدنيا من الأموال والنعيم ثم تصيبه دهشة عظيمة ويقول ياربي

أتسخر مني وتضحك مني وأنت الملك ثم ضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وفي حديث ابن مسعود في صحيح مسلم تفصيل لقصته وهو أنه إذا خرج من النار التفت إليها وحمد الله على أنه لم يعط أحد مثله ثم يرى شجرة ويدعو ربه أن يستظل بها ويشرب من مائها ويعاهد ربه أنه لا يسأله مرة أخرى ثم يرى شجرة ثانية ويعود لدعائه ويعاهد ثم يرى ثالثة عند باب الجنة ويعود لدعائه حتى يسمع أصوات أهل الجنة فيسأل ربه دخول الجنة. وإذا كان هذا الملك الواسع نعيم أدنى المؤمنين في الجنة ممن فرط في الدنيا فكيف بنعيم من كان أعلى منه من المقربين وأهل اليمين وقد ورد أن الجنة لها مائة درجة كل له منزلة بحسب عمله كما في البخاري: (أن الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة). والحكمة والله أعلم من حوار الله عز وجل مع هذا الرجل بيان امتنان الله عليه وكمال كرمه ورحمته وقدرته وفقر المخلوق ولطفه بعباده العاصين فينبغي للمؤمن أن يعظم الرجاء بالله ويحسن الظن به. وفي الحديث ثبوت صفة الضحك لله على الوجه اللائق به سبحانة وهي صفة فعليه اختيارية متعلقة بالمشيئة فالله يضحك متى شاء وأهل السنة مجمعون على إثبات هذه الصفة من غير تمثيل ولا تعطيل قال ابن خزيمة: (باب ذكر إثبات ضحك ربنا عَزَّ وجلَّ بلا صفة تصف ضحكه جلَّ ثناؤه لا ولا يُشبَّه ضحكه بضحك المخلوقين وضحكهم كذلك بل نؤمن بأنه يضحك كما أعلم النبي صلى الله عليه وسلم ونسكت عن صفة ضحكه جلَّ وعلا إذ الله عَزَّ وجلَّ استأثر بصفة ضحكه لم يطلعنا على ذلك فنحن قائلون بما قال النبي صلى الله عليه وسلم مصدِّقون بذلك بقلوبنا منصتون عمَّا لم يبين لنا مما استأثر الله بعلمه). وضل الأشاعرة وغيرهم من المؤولة فأولوا الضحك بالرضا وهذا تحريف للنصوص ومخالف لمذهب السلف. وفي ضحك النبي صلى الله عليه وسلم دليل صريح على جواز ضحك المؤمن وأن ذلك لا ينافي المروءة والإيمان والضحك السائغ شرعا هو ما كان عند الحاجة وعلى الهيئة المعتدلة أما استدامة الضحك ورفع الصوت به واضطراب الحركة كفعل السفهاء فمكروه عند الفقهاء وينافي الأدب الشرعي ويذهب الوقار ويقسي القلب وقد كان النبي صلى الله

عليه وسلم في تعامله مع الناس مع تألهه وورعه يضحك بدون صوت إذا اقتضى الحال ويبكي إذا خلا بربه وهذا من أكمل الأحوال خلافا لبعض أرباب السلوك الذين كانوا لا يضحكون ويرون أنه علامة على الغفلة ومناف للخشوع ويعدون تركه من المناقب وهدي النبي صلى الله عليه وسلم أكمل وأصح ولا يصح شيئ في النهي عن الضحك فيما أعلم وإنما ورد في الصحيحين النهي عن الضحك من الضرطة لأنه من سوء الأدب ويحزن الفاعل ومن عمل أهل الجاهلية.

(٦٥) أدنى أهل الجنة منزلة فيها

١-حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيقولُونَ لَوِ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا؛ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، وَيقولُ ائْتُوا نُوحًا، أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلاً، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتَوا مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ؛ فَيَأْتُونه فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا عِيسَى، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ، ائْتُوا مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَيَأْتُونِي، فَأَسْتأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُقَالُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسمَعْ، وَاشفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِي؛ ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، ثُمَّ أُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ؛ ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ سَاجِدًا مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ حَتَّى مَا يَبْقَى فِي النَّارِ إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ).

٢- حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم قَالَ: إِذَا كَانَ يَوْمُ

الْقِيامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدمَ فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمنِ؛ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ؛ فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ؛ فَيَأْتونَ عِيسَى فيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلكِنْ عَلَيْكُمْ بِمحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم؛ فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لاَ تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ؛ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي، أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا؛ فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ؛ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي، أُمَّتِي فَيُقَالُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ؛ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ؛ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا؛ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ؛ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي، أُمَّتِي فَيُقَالُ انْطَلِقْ فَأَخرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ؛ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَل ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا؛ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمع، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ؛ فَأَقول يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ، فَيَقُولُ وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لا إِله إِلاَّ اللّهُ).

٣- حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً ثُمَّ قَالَ: أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ يُجْمَعُ النَّاسُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ؛ فَيَقُولُ النَّاسُ أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ، عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ؛ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِه، وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ

لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ آدَمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي؛ اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ؛ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ؛ وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَه، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ؛ وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاثَ كَذَبَاتٍ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهبُوا إِلَى عِيسَى؛ فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ عِيسَى، إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم؛ فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ؛ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ

الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى).

الشرح:

في هذه الأحاديث بيان موقف الناس ليوم الحساب يوم القيامة في مشهد عظيم. وفي الحديث الأول يطلب الناس لشدة هول وقوفهم من النبي آدم عليه السلام أن يشفع لهم عند ربهم لينهي وقوفهم ويقضي بينهم فيثنون على آدم فيعتذر آدم عن القيام بهذا الأمر العظيم لما بدر منه من خطيئة في الدنيا ثم يرشدهم إلى نوح عليه السلام فيذكروه بفضائله ويطلبوا منه الشفاعة فيعتذر منهم باقترافه خطيئة في الدنيا ويرشدهم إلى إبراهيم عليه السلام فيحصل معه كما حصل مع من قبله فيرشدهم إلى موسى عليه السلام فيحصل معه كما حصل مع من قبله فيرشدهم إلى عيسى عليه السلام فيعتذر منهم ويقول لهم لأ أستطيع على طلبكم ويرشدهم إلى نبينا محمد سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم ويخبرهم أن الله عز وجل قد غفر له ذنبه كله فيأتونه فيستأذن ربه في طلب الشفاعة فيأذن له فيخر ساجدا سجودا طويلا ثم يقول له ربه ارفع راسك اطلب ما شئت فيرفع ويحمد الله بمحامد يفتح الله عليه بها ثم يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم فيشفعه ربنا عددا من المسلمين فيخرجهم من النار ويدخلهم الجنة ثم يشفع ثانية وثالثة إلى أن يخرج الله بشفاعته جميع المؤمنين من النار ولا يبقى فيها إلا المشركون الذين قضى فيهم القرآن بالخلود في النار قال البخاري: (إلا من حبسه القرآن يعني قول الله تعالى: (خَالِدِينَ فِيهَا). وفيه دليل على فضل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء لأن الله خصه بالمقام المحمود يوم القيامة كما قال تعالى: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا). قال ابن عباس رضي الله عنه: (المقام المحمود: مقام الشفاعة). وكان كل نبي كلمته نفسي نفسي ونبينا محمد كلمته أمتي أمتي. وفي الحديث الثاني ذكر أن الناس يموج بعضهم في بعض لشدة الهول قال تعالى في وصف أهوال القيامة: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم

بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ). ويحشر الناس عراة كما روت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنكم تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا. قالت عائشة: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك). متفق عليه. وفي صحيح مسلم: (تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمهم العرق إلجاما وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه). ويحشرون في يوم مقداره خمسين ألف سنة من أيام الدنيا إلا أنه يشدد على الكافر ويخفف على المؤمن كما روى أبو سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة). فقلت: ما أطول هذا ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها في الدنيا). رواه أحمد. ويكون المحشر على أرض جديدة بيضاء عفراء لا معلم فيها لم يسفك فيها دم ولم يرتكب فيها خطيئة كما ورد في صحيح مسلم. وفيه دليل صريح على أن الموحدين أهل كلمة لا إله إلا الله لا يخلدون في النار وأن المشركين يخلدون في النار والمراد بالموحدين من قالوا لا إله إلا الله وأيقنوا بمعناها وعملوا بمقتضاها فتبرأوا من الشرك وأهله كما قال تعالى: (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى). وفي صحيح مسلم عن طارق بن أشيم: (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل). قال محمد بن عبد الوهاب التميمي: (لم يجعل النطق بلا إله إلاَّ الله بل ولا كونه لا يدعو إلاَّ الله بل ولا معرفة معنى هذه الكلمة لم يجعل كل هذه الأمور عاصمة للدم والمال حتى يضيف إليها الكفر بما يُعبد من دون الله). أما من قالها بلسانه ولم يلتزم بها في جوارحه فتلبس بالشرك الأكبر ومات على ذلك فلا تنفعه هذه الكلمة لأنه مات على الشرك ولم يمت على التوحيد ولا يصير الإنسان مسلما حتى يتبرأ من الكفر وأهله. وفي الحديث الثالث دليل على أن ذراع الشاة كانت أحب اللحم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لو دعيت إلى ذراع أو

كراع لأجبت ولو أهدي إلي ذراع أو كراع لقبلت). وهذا يدل على تواضعه الجم. وفيه أن الكلام على الطعام ليس بمكروه إذا كان بوقار خال من الفحش والبذائة خلافا لما هو شائع عند العامة. وفيه أن الخلق مع كثرتهم وزحامهم في المحشر إلا أن البصر يحيط بهم والصوت يُسمعهم لأنهم في أرض منبسطة من غير حجاب ولأن الله في هذا الموقف يقوي أسماعهم وأبصارهم وهذا من أحوال البرزخ التي لا تقاس على أحوال الدنيا وهذا يدل على كمال قدرة الله جل جلاله. وفيه دليل على الفرق بين الرسول والنبي فالرسول هو كل من أرسل بشريعة جديدة من السماء ليبلغها للناس وقد أيده الله بالمعجزات الباهرات وأما النبي فكل من أمر بتبليغ شريعة رسول سابق للناس وقد أيده الله بالوحي والمعجزات فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول. وفيه دليل على وقوع الذنوب من الأنبياء لبشريتهم لكنهم معصومون عن الخطأ في تبليغ الوحي ومعصومون عن الوقوع في الكبائر عند أكثر علماء الإسلام ولا يعرف عن السلف خلافه كما حكاه ابن تيمية ولا يقرهم الوحي على الاستمرار في الصغائر فيبادرون في التوبة والنصوص صريحة في وقوع الصغائر منهم قال تعالى: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى). وقال تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ). ومن رد ذلك فقد تكلف ورد الأخبار برأيه الفاسد وأول من أحدث القول بعصمة الأنبياء مطلقا من سائر الذنوب الرافضة قبحهم الله. وفيه فضل من خلص التوحيد من الشرك والبدع والكبائر فكانت حسناته أعظم وأكثر من سيئاته وأنهم يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ويختصون بالدخول من الباب الأيمن أفضل أبواب الجنة ويشاركون الناس في الدخول من باقي الأبواب. وفيه دليل على عظم اتساع أبواب الجنة فالمسافة بين عضادتين الباب كالمسافة بين مكة في الحجاز وحمير في اليمن وأكثر الرواة الأثبات رووا: (ما بين مكة وهجر). أو ما بين مكة وبصرى في الشام والمسافة من مكة إلى هجر وبصرى متقاربة والذي يظهر لي أن هذا التمثيل على سبيل التقريب وليس التحديد وهذا الاتساع يدل على كثرة الداخلين في الجنة وإذا كانت الأبواب بهذه السعة فكيف بسعة الجنة وأبواب الجنة ثمانية وأول من يقرع باب الجنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته كما ثبت في الصحيحين. وفي الأحاديث إثبات

صفة الكلام لله عز وجل على ما يليق به سبحانه وتعالى فالله متكلم بصوت وحرف مسموع يكلم من شاء كيف شاء متى شاء فكلامه قديم حادث الأنواع كما تواتر هذا في الكتاب والسنة قال تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا). وأجمع أئمة السنة على ذلك وقد ضل المعتزلة والجهمية والكلابية والأشاعرة في هذه المسألة فأما المعتزلة والجهمية فأنكروا صفة الكلام وحرفوا لفظها وعطلوا معناها وأما الكلابية والأشاعرة فقد أثبتوا الصفة في ظاهر اللفظ وحرفوا معناها ففسروا كلام الله بأنه معنى قديم قائم في ذات الله ملازم للذات لا ينفك عنها وسموه بالكلام النفسي وقالوا إن هذا المعنى القائم بالنفس ليس له سر وعلانية وليس له صوت ولا حرف يسمعه الملائكة والأنبياء وغيرهم والتوراة والإنجيل والقرآن ليست كلام الله وإنما هو تعبير وحكاية عن كلام الله المعنى القديم عن طريق إدراك وسمع خلقه الله في الملائكة والأنبياء قال أبونصر السجزي: (ينبغي أن ينظر في كتب من درج وأخبار السلف هل قال أحد منهم إن الحروف المتسقة التي يتأتى سماعها وفهمها ليست بكلام الله سبحانه على الحقيقة ؟ وأن الكلام غيرها ومخالف لها وأنه معنى لا يدرى ما هو غير محتمل شرحاً وتفسيراً ؟ فإن جاء ذلك عن أحد من الأوائل والسلف وأهل النحل قبل مخالفينا الكلابية والأشعرية عذروا في موافقتهم إياه وإن لم يرد ذلك عمن سلف من القرون والأمم ولا نطق به كتاب منزل ولا فاه به نبي مرسل ولا اقتضاه عقل عُلم جهل مخالفينا وإبداعهم ولن يقدر أحد في علمي على إيراد ذلك عن الأوائل ولا اتخاذه إياه دينا في أثر ولا عقل). ومذهبهم ينتهي إلى تعطيل صفة الكلام وهو باطل مخالف لصريح القرآن والسنة وآثار الصحابة رضي الله عنهم وكلام العرب وهو محدث ليس له سلف من قول أئمة السلف وهو قول شنيع فيه امتهان للقرآن ويناقض ما ورد في تعظيم حرمة القرآن وصيانته. قال ابن تيمية: (وليس في الأئمة والسلف من قال: إن الله لا يتكلم بصوت بل قد ثبت عن غير واحد من السلف والأئمة أن الله يتكلم بصوت وجاء ذلك في آثار مشهورة عن السلف والأئمة وكان السلف والأئمة يذكرون الآثار التي فيها ذكر تكلم الله بالصوت ولا ينكرها منهم أحد حتى قال عبد الله بن أحمد قلت لأبي: إن قوما يقولون: إن الله لا يتكلم بصوت ؟ فقال: يا بني هؤلاء جهمية إنما يدورون على التعطيل ثم ذكر بعض الآثار المروية في ذلك). وكل

مذاهب المتكلمين في الصفات تؤول أصولهم إلى مذهب جهم بن صفوان أشهر من أظهر التعطيل وقد كفره أئمة السلف وردوا بدعته وشنعوا عليه.

(٦٦) اختباء النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأُمته

١-حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ، فَأُرِيدُ، إِنْ شَاءَ اللهُ، أَنْ أَخْتَبِيَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

٢-حديث أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (كُلُّ نَبِيٍّ سَأَلَ سُؤَالاً أَوْ قَالَ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوةٌ قد دَعَا بِهَا فَاسْتُجِيبَتْ، فَجَعَلْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

الشرح:

في هذين الحديثين بيان لكمال شفقة النبي صلى الله عليه وسلم بأمته ورحمته بهم ومحبة إيصال الخير لهم في الدارين كما قال تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ). فهو حريص على هدايتهم وإرشادهم في الدنيا وحريص على نجاتهم وفلاحهم في الآخرة وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يُغلِّب في تعامله مع أمته الرحمة على الغضب والعفو على الانتقام. وأفاد الحديثان أن لكل نبي مضى دعوة عظيمة مجابة لكنه صرفها في الدنيا وتعجلها في طلب عقوبة قومه المستكبرين وإنزال العذاب بهم أما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد أخر دعوته وادخرها لأمته يوم القيامة طلبا في الشفاعة لهم في فصل القضاء وهي المقام المحمود وإدخال السبعين ألفا الجنة وما يتبعه من أنواع الشفاعات لأمة محمد صلى الله عليه وسلم. والمراد بالدعوة هنا الدعوة الكبرى المتيقن إجابتها وباقي الدعوات على طمع في إجابتها وليست على يقين وكم دعوة دعاها الأنبياء ونبينا صلوات الله عليهم وأجيبت

وربما دعوا دعوات ولم تجب كما روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها). ودعوات النبي صلى الله عليه وسلم المجابة كثيرة في السنة. وينبغي للمؤمن التأسي بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم في محبة الخير لسائر المؤمنين خاصة أمة محمد والإيثار لهم والدعاء لهم بالمغفرة والرضوان والجنان كما أرشد الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ). وهو منهج للأنبياء عليهم السلام قال تعالى على لسان نوح: (رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا). وقال تعالى عن المؤمنين التابعين للمهاجرين والأنصار: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ). فيستحب الدعاء لجميع المؤمنين بالمغفرة وطلب الرحمة لهم قال ابن القيم: (والجميع مشتركون في الحاجة بل في الضرورة إلى مغفرةِ الله وعفوه ورحمته فكما يحبُّ أن يستغفر له أخوه المسلم كذلك هو أيضاً ينبغي أن يستغفر لأخيه المسلم فيصير هِجّيراه: ربِّ اغفر لي ولوالديَّ وللمسلمين والمسلمات وللمؤمنين والمؤمنات). ولم يثبت في السنة فضل خاص للاستغفار للمؤمنين والمؤمنات وكل ما روي في هذا الباب لا يصح وفيها نكارة. ومنهج أهل السنة محبة المؤمنين والإحسان إليهم لا سيما الصحابة والترضي عليهم والدعاء لهم وتعظيم حرمتهم والذب عنهم أما أهل البدع من الرافضة والخوارج وغيرهم فيطعنون في دينهم ويقدحون في عدالتهم قد ملأت قلوبهم غلا وغيظا ومذهبهم باطل مخالف للكتاب والسنة وأئمة السلف قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فسببتموهم). قال أبو بكر المروذي: سألت أبا عبد الله (يعني أحمد بن حنبل) عمن يشتم أبا بكر وعمر وعائشة؟ قال: (ما أراه على الإسلام).

(٦٧) في قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين)

١–حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حِينَ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ)، قَالَ: (يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا).

٢–حديث ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ: يَا صَبَاحَاهْ فَقَالُوا مَنْ هذَا فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ قَالُوا مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ مَا جَمَعْتَنَا إِلاَّ لِهذَا ثُمَّ قَامَ فَنَزَلَتْ (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ).

الشرح:

في هذين الحديثين دعوة النبي صلى الله عليه وسلم عشيرته. وأفاد الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتبليغ الدين لقومه الأقربين في قوله تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ). فامتثل النبي صلى الله عليه وسلم أمر ربه فخرج إلى قومه يدعوهم إلى الدخول في الإسلام وكانوا مشركين ويدعوهم إلى طاعة ربه ونبذ الأوثان وهو لا يخاف في الله لومة لائم فبدأ بخطاب القبيلة قريش ثم نزل إلى بطن عبد مناف ثم إلى بطن عبد المطلب في عمه العباس وعمته صفية ثم خاطب خاصة بيته فنادى ابنته فاطمة وقال لهم

جميعا أنقذوا أنفسكم من النار في ترك الكفر والدخول في الإسلام ولا تعتمدوا على قرابتي لكم فإني يوم القيامة لا أغني عنكم من عذاب الله شيئا فلا أشفع لكم ولا أنصركم ولا أكون لكم وليا من دون الله لأني لا أملك الشفاعة في القوم الكافرين. وفي الحديث الثاني خاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم بما يعرفونه عنه من الصدق والأمانة فلما أقروا قال لهم إني مرسل من ربي لأنذركم من عذاب الله فمن أطاعني دخل الجنة ومن عصاني دخل النار فما كنت كاذبا في أمر دنياكم فكيف أكذب عليكم في أمر دينكم وخبر ربكم ثم كذبه عمه الشقي أبو لهب وكان اسمه عبد العزى فنزل فيه الوعيد يتلى إلى يوم القيامة في قوله تعالى: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ). قال قتادة: (خسرت يدا أبي لهب وخسر). وفي الحديث ينبغي على الداعية أن يبدأ بدعوة أهل بيته وقومه قبل دعوة الآخرين لأنهم أحق الناس بالنور والخير الذي يحمله ولأن مسؤول ومخاطبا شرعا في إنقاذهم من النار قال تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ). ويقبح بالداعية إلى الله أن يكون مشتغلا بدعوة الأبعدين مقصرا في أهل بيته بل ربما تجد الرجل يشار إليه بالبنان فإذا زرته وجدت أهله مجاهرين بالمعصية ومقيمين على الغفلة وهو يقرهم على ذلك لا يحرك ساكنا. وفيه دليل على أن المؤمن إذا بذل وسعه في دعوة أهل بيته واجتهد في هدايتهم فلا يضره ولا ينقصه ولا يقدح في إخلاصه من ضل من أهل بيته وقومه لأن الهداية بيد الله والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء والمؤمن مكلف بالدعوة ولم يكلف بالهداية وقد وقع هذا للأنبياء مع صدق دعوتهم وإخلاصهم ونصيحتهم وهو من الابتلاء للمؤمن في الدنيا. وفيه دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينفع الكافرين يوم القيامة سواء كانوا من قرابته أم من عامة الناس ولا يشفع فيهم لأن الله لم يأذن بذلك وإنما يشفع في المؤمنين. وفيه دليل على أن النجاة من النار والفوز بالجنة لا يكون بمجرد شرف اتصال النسب برسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بأهل بيته ولا مدخل للنسب والشرف في ثبوت الإيمان والنجاة يوم القيامة قال تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ

يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ). وإنما يتحقق ذلك باعتناق الإسلام وتحقيق الإيمان والأعمال الصالحة فرب مولى وضيع مؤمن في الدنيا منعم في الآخرة ورب نسيب شريف كافر في الدنيا معذب في الآخرة.

(٦٨) شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه

١-حديثُ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه قَالَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ قَالَ: (هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ).

٢-حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ، فَقَالَ: (لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ).

الشرح:

في هذين الحديثين بيان شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في عمه أبي طالب واسمه عبد مناف. ودل الحديث الأول على أن سبب شفاعة النبي لعمه جزاءا لما بذله له في الدنيا من النصرة والحماية والذب عن عرض النبي صلى الله عليه وسلم من أذى الكفار حتى

مات بعد خروجهم من حصار الشعب في السنة العاشرة من بعثته مما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يعبد ربه ويدعو الناس سرا في مكة بكل حرية من غير أن يمنع من قبل الكفار لخشيتهم من جوار وهيبة أبي طالب قال ابن مسعود رضي الله عنه: (فأما رسول الله فمنعه الله بعمه أبي طالب). رواه أحمد. ولما مات عمه أبوطالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تطمع فيه في حياة أبي طالب وصنيع النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه يقتضي العدل والانصاف والرحمة لمن أحسن إليه.

ودل أيضا على أن نبينا صلى الله عليه وسلم يشفع في عمه لتخفيف العذاب فمكانه في أسفل النار ولكن بسبب شفاعته صار في أعلى النار في نار خفيفة كقدر الماء الذي يبلغ الكعبين يغلي منه دماغه وقد فسر هذا في حديث ابن عباس عند مسلم: (إن أهون أهل النار عذابا أبو طالب له نعلان يغلي منهما دماغه). والمراد أنه يعذب عذابا خفيفا بالنسبة لعذاب قومه من الكفار في النار الذين يحل العذاب على جميع أجسادهم في قعر جهنم. والنار دركات كما أن الجنة درجات والكفار يتفاوتون في العذاب بالنار على حسب درجة كفرهم وعنادعم وصدهم عن سبيل الله ومعاداتهم لأولياء الله قال تعالى: (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ). قال ابن مسعود رضي الله عنه: (زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال). قال ابن كثير: (وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم). فالمنافقون أشد الناس عذابا لكفرهم الغليظ قال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا). قال ابن مسعود: (يجعلون في توابيت من نار فتطبق عليهم في أسفل درك من النار).

(٦٩) أهون أهل النار عذابًا

١-حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تَوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ).

الشرح:

بين هذا الحديث الشريف مقدار أهون أهل النار عذابا في النار وهو رجل توضع جمرة في أسفل قدميه فيغلي دماغه من هذه الجمرة وهذا العذاب خفيفا بالنسبة لعذاب أهل النار لأنه في نار مخففة وليس داخلا في أسفل النار وإلا فهو عظيم بالنسبة لعذاب أهل الدنيا لأن أحوال الآخرة وأهوالها أعظم وأشد من أحوال الدنيا وورد في حديث النعمان بن بشير عند مسلم أنه يرى أنه أشد الناس عذابا من شدة ما يجد مع أنه أهونهم وهذا يدل على خطورة الأمر وعدم الاستخفاف بخطر الذنوب. وقد ورد أن أبا طالب يعذب بنحو هذا في النار لشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم فيه وهذا الرجل تمسه النار في قدميه دون سائر بدنه أما باقي أهل النار فتمس النار أبدانهم في قعر جهنم كما قال تعالى في وصف حالهم: (لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يعِبَادِ فَاتَّقُون). وقد ورد وصف خطير للنار في القرآن والسنة قال تعالى: (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ.يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ.وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَآ أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ). وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءا من حر جهنم قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها).وورد في مسلم أن أهل النار إذا غمسوا في النار ينسون كل نعيم مر بهم في الدنيا وورد أيضا في مسلم أن الصحابة رضي الله عنهم

سمعوا صوتا عظيما فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا حجر ألقي في النار منذ سبعين سنة والآن بلغ قعر جهنم وهذا الوصف يوجب خوف المؤمن ووجله من عذابها وحرها والبعد عن الأسباب المفضية لدخول النار. ويشرع للمؤمن كثرة التعوذ من النار قال تعالى: (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا). وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من الاستعاذة من النار في الصلاة وغيرها كما ثبت في السنة وقال أنس رضي الله كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) متفق عليه. ومن أعظم ما يدخل النار الشرك والكبائر لا سيما قتل النفس والزنا وشرب الخمر وأكل الربا وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والسرقة وقطيعة الرحم وقد تساهل الناس في هذا الزمن بالزنا وشرب الخمر وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن على الله عز وجل عهدا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال. قالوا: يا رسول الله وما طينة الخبال ؟ قال: عرق أهل النار أو عصارة أهل النار). وللنار منجيات فمن أعظمها الإيمان وتحقيق التوحيد واتباع السنة والمحافظة على الفرائض لاسيما الفجر والعصر والصوم في سبيل الله والصدقة وحسن الخلق والصبر على فقد الأبناء وحسن تربية البنات والذب عن عرض المؤمن فنسأل الله يرحمنا وسائر المسلمين برحمته ويقينا عذاب النار بفضله وجوده ويدخلنا الجنة مع الأبرار.

(٧٠) موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم

١-حديث عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ يَقُولُ: (إِنَّ آلَ أَبِي فُلاَنٍ لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا يَعْنِي أَصِلُهَا بِصِلَتِهَا).

الشرح:

هذا الباب فيه بيان حق الرحم الكافر ونوع العلاقة بهم في الدنيا. وأفاد الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ينفي رابطته الإيمانية وإخوته الدينية برحمه الذين لم يدخلوا في دين الإسلام لأن الإخوة الإيمانية لا تثبت إلا باتفاق الدين فلا إخوة بين مسلم وكافر ولا محبة ولا نصرة ولا ولاية بينهما لاختلاف الدين قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ). وقال تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ). وقوله: (ولكن لهم رحم أبلها ببلالها). فيه دليل على مشروعية صلة الرحم الكفار والإحسان إليهم في الدنيا بالكلام والزيارة والمال والمواساة سواء كانوا قريبين كالوالدين أو بعيدين كسائر الأقارب لأن لهم حق خاص بسبب القرابة ولأن الدين يدعو للرحمة والاحسان للإنسان والحيوان والجماد ولذلك أمر الله بالاحسان للوالدين الكافرين فقال تعالى: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا). فالرحم الكافر لهم حق واحد حق القرابة والرحم المسلم لهم حقان حق القرابة وحق الإسلام والحاصل أن النبي صلى الله عليه وسلم بين أنه لا يتولى أقاربه الكفار من جهة الدين ولكنه يصلهم ويحسن إليهم بحق القرابة. والولاية في الدين تقتضي المحبة والنصيحة والحماية وسائر حقوق الإخوة الإيمانية والبراءة تقتضي البغض والمنع وترك النصيحة. وفي هذا الحديث رد على الكفار والزنادقة الذين يصفون دين الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم بالوحشية والعنف والظلم والدلائل والشواهد كثيرة على رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وتسامح الإسلام. وفيه دليل على ثبوت قاعدة الولاء والبراء وهي من أعظم أصول الدين وفي سنن أبي داود من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان). قال ابن تيمية: (إن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يواد إلا لله ولا يعادي إلا لله وأن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله). وقد تواتر في الشرع أن الولاء يكون لأهل الإيمان والبراء يكون لأهل الكفر ولا اعتبار في ثبوت الولاء والبراء بالنسب ولا بالعشيرة ولا بالبلد فقد يكون الرجل قريبا في النسب بعيدا في الدين وقد

يكون بعيدا في النسب قريبا في الدين وكلما قوي الإيمان قوي العمل بهذا الأصل وكلما ضعف الإيمان ضعف العمل به فمن آثر الدنيا على الآخرة أحب الكفار وركن إليهم ومن آثر الشهوات على الطاعات أحب الفساق واستأنس بهم.

والناس في حكم الولاء والبراء ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: الكافر فهذا يُتبرأ منه كليا ولا يُتولى أبدا كما قال تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ).

الصنف الثاني: المؤمن كامل الإيمان فهذا يُتولى ولاية كاملة ولا يُتبرأ منه لأنه محب لله ورسوله صلى الله عليه وسلم مطيع لهما قال تعالى: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ).

الصنف الثالث: المؤمن القائم على المعاصي فهذا يُتولى على قدر إيمانه وطاعته ويتبرأ منه على قدر فسقه ومعاصيه فلا يعطي الولاء التام ولا يتبرأ منه البراءة التامة قال تعالى: (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا). فجعل لهم ولاية الإيمان مع بغيهم وقتالهم قال ابن تيمية: (وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة كاللص تقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم). فنحبه لما فيه من الإيمان والعمل الصالح ونبغضه لما فيه من الفسق والفجور وهذا مسلك أهل السنة مع العصاة ولا نتبرأ منه مطلقا كما تفعل الخوارج مع عصاة المسلمين ولا نتولاه ولاية تامة كما تفعل المرجئة مع عصاة المسلمين. ومن أصول أهل السنة في هذا الباب البراءة من أهل البدع المخالفين للسنة صيانة للدين وتحذيرا للعامة لئلا يلتبس الحق بالباطل وتشتبه عليهم الأمور وقد أجمع أئمة السلف على هذا الأصل واتفقت أقوالهم وتنوعت أساليبهم وتطبيقاتهم العملية كثيرة جدا قال البغوي: (وقد مضت الصحابة والتابعون

وأتباعهم وعلماء السنن على هذا مجمعين متفقين على معاداة أهل البدع ومهاجرتهم).
وكثير من المنتسبين للسنة اليوم لا يعملون بهذا الأصل إما جهلا أو استنادا لشبهات فاسدة لا تثبت أمام النصوص وآثار السلف ولما تساهلوا في العمل بهذا الأصل شاعت البدع واستقرت في نفوس العامة وصارت دينا عند الجهال وعظم شأن المبتدعة واندثرت السنن وصار أهلها غرباء. ومن الناس من يوالي ويعادي لأجل شيخ أو طريقة أو جماعة دعوية أو مذهب فقهي وهذا عمل محدث ليس له أصل في السنة قال ابن تيمية: (وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته يوالي عليها ويعادي غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة يوالون به على ذلك الكلام أو تلك السنة ويعادون). وقد كان الولاء والبراء في زمن السلف قائما على أمر الدين أما في العصور المتأخرة فقد صار عامة الناس يوالون ويعادون على أمر الدنيا فيوالون من يملك الدنيا لأجل الانتفاع بماله ولو كان عدوا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ويعادون من عدم الدنيا لانقطاع المصلحة ولو كان وليا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم والله المستعان قال ابن عباس رضي الله عنه: (وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً).

(٧١) الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب

١-حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الأَسَدِيُّ يَرْفَعُ نَمِرَةً عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ. ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي

مِنْهُمْ، فَقَالَ: سَبَقَكَ عُكَّاشَةُ).

٢-حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: (لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا، أَوْ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ (لاَ يَدْرِي الرَّاوِي أَيُّهُمَا قَالَ) مُتَمَاسِكُونَ آخِذٌ بَعْضُهُمْ بعضًا، لاَ يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ، وُجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ).

٣-حديث ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَوْمًا فَقَالَ عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي، فَقِيلَ هذَا مُوسى وَقَوْمُهُ؛ ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ لِي انْظُرْ هكَذَا وَهكَذَا، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ هؤُلاَءِ أُمَّتُكَ، وَمَعَ هؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ؛ فَتَذَاكَرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالُوا: أَمَّا نَحْنُ فَوُلِدْنا فِي الشِّرْكِ، وَلكِنَّا آمَنَّا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَلكِنَّ هؤُلاَءِ هُمْ أَبْنَاؤُنَا فَبَلَغَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: هُمُ الَّذِينَ لاَ يَتَطَيَّرُونَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: نَعَمْ فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ).

٤-حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي قُبَّةٍ، فَقَالَ: (أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ قُلْنَا: نَعَمْ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُهَا إِلاَّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلاَّ كَالشَّعَرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ).

الشرح:

هذا الباب في بيان فضل طائفة من أمة محمد تدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب. وأفاد الحديث الأول بدخول طائفة من أتباع النبي صلى الله عليه وسلم عدهم سبعون ألف وجوههم مضيئة بالإيمان كضوء القمر وهؤلاء هم الكمل من أهل الإيمان الذين تميزوا عن غيرهم بتحقيق التوكل واتباع الشرع فاجتنبوا الشرك والبدع والكبائر وكثرت حسناتهم وليس لهم إلا سيئات يسيرة مغمورة في بحر حسناتهم وهم قليل بالنسبة لكثرة أمة محمد منذ مبعثه إلى قيام الساعة. والمؤمنون في الحساب يوم القيامة ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: من لا يحاسب أصلا وهم هذه الطائفة المتوكلون على ربهم.

الصنف الثاني: من يحاسب حسابا يسيرا وهم أهل اليمين كما قال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا). فيعرض على ربه ويُتجاوز عن سيئاته.

الصنف الثالث: من يناقش في الحساب فيعذب وهم أهل الشمال كما في الصحيحين عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من نوقش الحساب عذب قالت: قلت: أليس يقول الله تعالى : (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا). قال: ذلك العرض). وأما الكفار فيدخلون النار مباشرة بلا حساب لأنهم لا يملكون حسنة يجازون عليها يوم القيامة وهذا قول عائشة رضي الله عنها وعن قتادة السدوسي: ((فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ). قال: حساب الكفار عند الله تبارك وتعالى (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)). وإنما تعرض عليهم أعمالهم لتوبيخهم وقد يوازن بين أعمالهم لتتميز عقوبتهم ومراتبهم في النار وهذا اختيار ابن تيمية. وفيه دليل على فضيلة عكاشة بن محصن الأسدي الذي انتهز الفرصة وسأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون من هذه الطائفة فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم بذلك تحقيقا وقال أنت منهم فياله من فضل عظيم. وفيه أدب النبي صلى الله عليه وسلم في رد السائل الأنصاري حين طلب كمطلب عكاشة فاعتذر منه النبي صلى الله عليه وسلم بجواب لطيف لأنه لا يستحق هذه المنزلة فينبغي على المؤمن أن يلتزم الأدب الشرعي في استعمال الرفق واللطف في الكلام والسؤال والجواب مع الناس ليستميل قلوبهم للحق ويجمع كلمتهم على الهدى وهذا مقصد حسن اعتنى به الشارع الحكيم. وفي رواية الحديث الثاني الشك في عدد هذه

الطائفة من قبل الراوي أبي حازم أهم سبعون ألف أو سبعمائة ألف وهذا وهم منه والمحفوظ عن الثقات في هذا الحديث وهو الموافق لسائر الأحاديث أنهم سبعون ألف فقط وقد يرد الشك أو التوقف في بعض روايات الأحاديث من بعض الرواة لسبب الوهم ولكن الله قيض أهل الحديث من الحفاظ الذين عرفوا بعلم العلل فوضعوا ميزانا دقيقا لتمييز الأحاديث والألفاظ المحفوظة من الشاذة والضعيفة فالله تكفل بحفظ السنة ولا تضل الأمة عن معرفة الحق. وفيه دليل على أن هذه الطائفة يدخلون الجنة متماسكين صفا واحدا. وفي الحديث الثالث بيان قلة الأتباع لبعض الأنبياء يوم القيامة ومنهم من لا يتبعه أحد وهذا فيه دليل على أن الحق لا يعرف بكثرة العدد وإنما يعرف بموافقة الشرع المنزل ولا عبرة بالكثرة إذا خالفت التوحيد والسنة وفي هذا تسلية لغرباء السنة في كل زمان قال تعالى: (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ). وفيه دليل على كثرة أمة النبي موسى عليه السلام التي سدت الأفق وطمع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن تكون أمته ثم قيل له انظر فنظر فإذا جماعة أعظم من أمة موسى قد ملأت الأفق فقيل له هذه أمتك ومعها السبعون ألف وهذا يدل على أن أمة محمد من أكثر الأمم التي تدخل الجنة وهذا من خصائصها. وفي الحديث بيان لصفات السبعين ألف التي أوجبت لهم الفوز بهذه المنزلة وتميزهم عن سائر المؤمنين وقد اجتهد الصحابة رضي الله عنهم في تحديد هذه الصفات وذكروا بعض المناقب ولم يوفقوا للصواب ثم بين لهم النبي صلى الله عليه وسلم أن صفاتهم أربع:

الأولى: أنهم لا يتعاطون الطيرة والطيرة هي التشاؤم بكل قول أو فعل أو هيئة في جلب الشر وهي من الشرك الأصغر وهي من شرك الأسباب وقد نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (الطيرة شرك الطيرة شرك ثلاثا وما منا إلا ولكن الله يُذهبه بالتوكل). رواه أبوداود والترمذي. وهو من عمل أهل الجاهلية قال تعالى: (فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ). وإنما نُهي عنها لأنها من التعلق بغير الله وسبب لوهن القلب بالخرافات والأوهام وسوء ظن بالله وضابط الطيرة أن تحمل المرء على فعل الشيء أو تركه أما إذا وجد في قلبه

شيئا فاستعاذ بالله وتوكل على ربه وباشر العمل فليس ذلك من الطيرة ولا يضره بإذن الله.

الثانية: أنهم لا يسترقون يعني لا يطلبون الرقية من غيرهم مهما حصل لهم من الضر وإنما يرقون أنفسهم كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يرقي نفسه ولا ينافي ذلك من رقاه غيره بلا طلب منه كما كان جبريل عليه السلام يرقي النبي صلى الله عليه وسلم وورد في مسلم (لا يرقون) وهذه اللفظة شاذة لا تصح كما قرر ذلك ابن تيمية لأن رقية الغير من باب الإحسان ولا منة فيها ولا تنافي التوكل.

الثالثة: أنهم لا يكتوون يعني لا يعالجون دائهم بالكي فيتركون هذا السبب مع كونه جائزا بالاتفاق من باب التوكل على الله لأن فيه نوع مثلة ويحتمل أن سبب تركه دفع ما كان يعتقده أهل الجاهلية من كون الكي شافيا على كل حال وهذا لا يدل على ترك باقي الأسباب المشروعة من تعاطي التداوي الذي رغب فيه النبي صلى الله عليه وسلم لأنه لا ينافي كمال التوكل ولأن هذا الحكم خاص بدواء الكي ولا يتعدى لسائر الأدوية.

الرابعة: أنهم على ربهم يتوكلون والتوكل حقيقته الاعتماد على الله والثقة به مع فعل الأسباب النافعة قال تعالى: (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ). فلا بد في صحة التوكل من ركنين الأول: اعتماد القلب على الله. الثاني: تعاطي الأسباب النافعة بالجوارح. وهذا هو مذهب أهل السنة في باب التوكل وقد ضل في هذا الباب صنفان:

الأول: من اعتمد على الأسباب الظاهرة واعتقد أنها سبب موجب لحصول النفع وأهمل الاعتماد على الله وهذا من شرك الأسباب وهو حال أهل الدنيا الذين يعتمدون على الماديات.

الثاني: من اعتمد على الله بقلبه في تحصيل المراد وأهمل تعاطي الأسباب النافعة فهذا تواكل وليس توكل وفيه قدح في الشرع وتعطيل لحكمة الله وهو مسلك الصوفية الخارجين عن السنة ومذهبهم باطل مخالف للقرآن وهدي النبي صلى الله عليه وسلم وآثار الصحابة وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي ناسا من اليمن فقال: (من أنتم. قالوا: نحن المتوكلون. قال: بل أنتم المتكلون إنما المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله). وهذه الصفة الرابعة تعتبر أصلا جامعا يدخل فيه الصفات

الثلاث الأولى فمن كمال التوكل تركوا مباشرتها. وفي الحديث الرابع دليل على تفضيل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم بكونها أكثر الأمم دخولا للجنة ودل على أن شطر أهل الجنة منهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم قلة المؤمنين عند أهل الكفر.

(٧٢) قوله يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين

١-حديث أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (يَقُولُ اللهُ: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ قَالَ: يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعثُ النَّارِ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ، تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ قَالَ: أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوج وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي فِي يَدِهِ إِنِّي لأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، قَالَ: فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي فِي يَدِهِ إِنِّي لأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعَرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، أَوِ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ).

الشرح:

في الحديث دليل على أن الكفار الذين يدخلون النار أكثر بكثير من المؤمنين. وأفاد الحديث أن الله يأمر أبانا آدم عليه السلام بتمييز الكفار من أهل النار من المؤمنين أهل الجنة لأنه والد الناس ولأن الله أطلعه على أهل السعادة وأهل الشقاوة من جميع الخلق

كما ورد في حديث الإسراء المخرج في الصحيحين: (أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه ليلة الاسراء وعن يمينه أسودة وعن شماله أسودة). ثم يجيبه آدم عليه السلام مطيعا مستفهما فيأمره أن يخرج من ذريته من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين على النار وواحد إلى الجنة وورد في حديث أبي هريرة من كل مائة تسع وتسعين. وفي الحديث خوف الصحابة رضي الله عنهم وإشفاقهم لما سمعوا كثرة من يدخل النار وقلة من يدخل الجنة ثم سرى عنهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن المراد بالكثرة هنا الكفار قوم يأجوج ومأجوج والقلب إذا عمر بالتقوى وتعلق بالله وَجِل وانزجر بذكر النار وفرح واستبشر بذكر الجنة قال تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ). وهذا كان غالب حال الصحابة رضي الله عنهم الذين سارت قلوبهم للآخرة وزهدت في زخرف الدنيا والتذكير بالجنة والنار من وظيفة الأنبياء أما أهل الإنحلال فيعيبون هذا الخطاب ويسمونه بثقافة الموت كأنهم سيخلدون في الدنيا قبحهم الله. وفيه دليل ظاهر على أن أكثر بني آدم كفار والقلة منهم مؤمنون لحكمة أرادها الله من الإبتلاء والإمتحان فأمم الكفر أكثر عددا وعدة من المؤمنين في الدنيا في سائر الأزمان ويتنعمون بملذات الدنيا ويتقلبون بأنواع المكاسب والتجارات والغبطة والسرور قال تعالى: (لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ). والمؤمن المتبصر العالم بالسنن الكونية والحكم الإلهية لا يأسف لكثرة الكفار ولا يغتر بهم ولا يغتم بكفرهم ويوقن أن الله ابتلى بهم المؤمنين وعجل لهم طيباتهم في الحياة الدنيا وسيلقون عذابهم الأليم يوم القيامة ولا يحزن لقلة المؤمنين لأن هذا هو مقتضى إرادة الله وحكمته وإنما يسعى لهداية الكفار امتثالا لطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ورغبة في ثواب الله والنتيجة بيد الله ولو شاء الله لآمن كل البشر وإنما قدر كفرهم امتحانا وفتنة وهذا المعنى قد يخفى على الداعية إلى الله فيتصرف بما يخالف الشرع ويقدح في حكمة الله ويحمل الناس فوق طاقتهم وينفرهم عن اتباع الحق والدعوة بلا علم تفسد أكثر مما تصلح. وفيه دليل على أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تبلغ نصف أهل الجنة وهذا من فضائلها على سائر الأمم لأن أهل الإجابة في هذه الأمة أكثر من غيرهم في باقي الأمم وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء وهو العليم الحكيم. وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن أمته في القلة والندرة بين سائر أمم

الكفر كوجود الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كوجود القطعة الصغيرة بلا شعر في باطن ذراع الحمار والمقصود بالتمثيل تقليل المؤمنين في مقابل الكافرين يوم القيامة وهذا يفسر أول الحديث وكل هذه الأمور من أخبار الغيب التي أطلع الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم والواجب على المسلم تصديقها والجزم بوقوعها. ومن أعظم النعم على العبد أن يوفق لنعمتين نعمة الإيمان ونعمة السنة ويقبض على ذلك قال مجاهد: (ما أدري أي النعمتين علي أعظم أن هداني للإسلام أو عافاني الله من الأهواء). وقال أيوب السختياني: (يا عمارة إذا كان الرجل صاحب سنة وجماعة فلا تسأل عن أي حال كان فيه). وقال المروزي: (قلت لأبي عبد الله (الإمام أحمد) من مات على الإسلام والسنة مات على خير قال: اسكت بل مات على الخير كله). والحمد لله أن هدانا للإيمان وجعلنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم المتبعين لسنته ونسأله أن يثبتنا ويسددنا حتى الممات ويعز الإسلام وأهله ويذل الكفر وأهله ويجمع كلمة المسلمين على الحق.

وبهذا الباب يتم الكتاب والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على نبي الرحمة محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين.